UTL AT DOWNSVIEW
D RANGE BAY SHLF POS ITEM C
39 10 14 02 04 023 3

PLEASE DO NOT REMOVE
CARDS OR SLIPS FROM THIS POCKET

UNIVERSITY OF TORONTO LIBRARY

BP
128
.16
M8
1902

Muhammad 'Abduh
Tafsir al-Fatihah

تفسير الفاتحة

مبدوء بمقدمة التفسير

ملخص من دروس الامام العلم والاستاذ الحكيم

الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية الآن

حفظه الله آمين

ويليه ثلاث مقالات تفسيريه له ايضا

(أولاها) فى قوله تعالى (وان تصبهم حسنة يقولوا

من عند الله) الخ الآية مع الجمع بينها وبين قوله تعالى

(ما أصابك من حسنة فمن الله) الخ الآية (وثانيها)

بيان مسألة الغرانيق ودحض الشبه فيها وتفسير الآيات

أيضاً (وثالثها) توضيح مسألة زيد وزينب أو ابطال

التبنى في الاسلام وتفسير الآيات الواردة في ذلك

(التزم طبعه احمد عمر المحمصاني الازهري)

(حقوق الطبع محفوظة لصاحب المنار)

(طبعت بمطبعة الموسوعات بباب الخلق بمصر سنة ١٣١٩)

« لصاحبها اسماعيل حافظ »

LIBRARY
SEP
1977
UNIVERSITY

BP
128
.16
M8
1902

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

حمداً لمن علَّم الأُمِّيين بالقلم، علم الانسان مالم يعلم، وصلاةً وسلاماً على سيدنا محمد المبعوث للامم، وعلى آله وصحبه وسلم

وبعد فان القرآن هو هداية الله العظمى لعباده صلح باتباعه من لم يعرف من قبله اصلاحا ، وأفلح به من لم يجد من دونه فلاحا ، وقد أنشأ المسلمون يشعرون في هذه الايام بأنهم مافقدوا مجد سلفهم الصالحين ، وتلك السعادة التي كانت لآبائهم الأوّلين، الا لأنهم لم يهتدوا به كهدايتهم ، ولم يأخذوه بقوة كأخذهم ، ورجع طلاب الاصلاح فيهم الى قاعدة الامام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وهي « لا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به أولها » ورأوا الامة في حاجة شديدة الى فهم القرآن من حيث كونه هادياً الى السعادة ومرشداً الى كمال العمران الاجتماعي

ومن فضل الله تعالى على الانسان انه لا يستعد لشيء من الخير الا ويفيضه عليه بفضله وكرمه فألهم محمداً عبده (مفتي الديار المصرية لهذا العهد) ان يفتح للمسلمين هذا الباب،

وهو عبدٌ آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وجعله إماماً لأولى الألباب ، فانشأ يفسر القرآن على هذا الوجه في الجامع الازهر الشريف في مجالس يحضرها العلماء والطلاب وكثير من الوجهاء ورجال الحكومة وأجمع أهل الفضل على أن هذا التفسير هو الذي ينفخ روح الحياة الملية في المسلمين وانه يجب نشره فى جميع الاقطار ورغب الىّ كثيرون من أهل القطر المصري وغيره ان أنشر في « المنار » خلاصة مايقرّره الاستاذ فى الدرس لأن المنار هو المجلة الدينية الوحيدة المنتشرة في الاقطار فوافقت رغبتهم رغبتي بل علمت ان هذا واجب عليّ وان المنار ما انشئ الا لمثله فطفقت أكتب خلاصة التفسير وأنشرها فى المنار متتابعة بعد عرضها على الامام المفسر وإجازتها من لدنه

وبعد ان تم نشر تفسير الفاتحة رأيت الرغبات متوجهة الى طبعه فى كتاب على حدة لأن هذه السورة هى التي لا يجهلها مسلم فى الدنيا لانها من فرائض الصلاة وأركانها ولأنه أجمل فيها ما فصل فى الكتاب كله تفصيلا . فعزمت على تجريدها من «المنار» وطبعها مستقلة ليعم نشرها وينتفع بها من لم يقرأ المجلة . ولكن الشواغل الكثيرة قضت بالارجاء والتسويف حتى انبرى أخى فى

الله تعالى الفاضل الغيوز الشيخ احمد عمر المحمصاني الأزهري لمساعدتي على الطبع والنشر فأنفذناه بعد عرضه ثانية على الاستاذ واجازته وتصحيحه وزيادته بعض فوائد. ورأينا ان نضم الى تفسير الفاتحة مقدمة التفسير وتفسير بعض الآيات التي أشكل على العلماء حلها لانها من المتشابهات التي فتن المسلمين بها أهل التأويل. وأكثر القدح بسببها المخالفون لنا فى الدين، وهى (١) ما يتعلق بنسبة أفعال العبد اليه تارة والى الله تعالى تارة اخرى بما يوهم التناقض في قوله تعالى « وإنْ تُصِبْهُم حَسَنَةٌ يقولوا هذه من عندِ الله وإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يقولوا هذه من عندكَ قُلْ كلٌّ من عند الله » وقوله عز وجل «ما أصَابَك من حَسَنةٍ فمِنَ الله ومَا أصابك من سيئة فمن نفسك» (٢) ما استدلُّوا به على مسئلة الغرانيق الشهيرة القادحة فى الثقة بالوحي لو صحت. (٣) ما ورد فى شأن تطليق زيد بن حارثة زينب بنت جحش رضي الله عنهما وتزوُّج النبي صلى الله عليه وسلم بها الحكمة إبطال سنَّة التبنّي السيئة. وقد كتب الامام المفتي تفسير هذه الآيات بقلمه كتابة حلّت عقد كل إشكال ونشرت فى المنار داحضة للشبهات، منيرة للظلمات، قامعة للأباطيل، وعلى الله قصد السبيل،

محمد رشيد رضا
منشئ مجلة المنار الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ * الرحمنِ الرحيمِ * مالكِ يومِ الدينِ * إيّاك نعبدُ وإياكَ نستعين * إهدنا الصراط المستقيم * صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهم * غيرِ المغضوب عليهم ولا الضالّين * آمين

* مقدمة التفسير *

فهم القرآن بالتعقل والتدبر • للتفسير وجوه شتى • القرآن حجة قائمة الى يوم القيامة ولا بدّ لكل مسلم أن يكون له من فهمه نصيب بقدر طاقته واستعداده • مراتب التفسير • ما الذى يجب على الناس من التفسير • التفسير فرض كفاية • الحاجة الشديدة الى التفسير اليوم وفيما بعده • جاهلية الناس اليوم أعرق فى الجهل من الجاهلية الاولى • تأثير القرآن العظيم واعتناء العلماء الاولين باللغة العربية

التكلم في تفسير القرآن ليس بالأمر السهل وربما كان من أصعب الأمور وأهمها وما كل صعب يترك ولذلك لا ينبغي أن يمتنع الناس عن طلبه • ووجوه الصعوبة كثيرة أهمها أن القرآن كلام سماوي تنزل من حضرة الربوبية التي لا يكتنه كنهها على قلب أكمل الانبياء وهو يشتمل على معارف عالية .

ومطالب سامية . لا يشرف عليها الا أصحاب النفوس الزاكية والعقول الصافية . وان الطالب له يجد أمامه من الهيبة والجلال . الفائضين من حضرة الكمال . ما يأخذ بتلبيبه . ويكاد يحول دون مطلوبه . ولكن الله تعالى خفّف علينا الأمر بأن أمرنا بالفهم والتعقل لكلامه لأنه انما أنزل الكتاب نوراً وهدى مبيّناً للناس شرائعه وأحكامه ولا يكون كذلك الا إذا كانوا يفهمونه

والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس الى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة فان هذا هو المقصد الأعلى منه وما وراء هذا من المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله

التفسير له وجوه شتى أحدها النظر في أساليب الكتاب ومعانيه وما اشتمل عليه من أنواع البلاغة ليعرف به علوّ الكلام وامتيازه على غيره من القول . سلك هذا المسلك الزمخشري وقد ألمّ بشيء من المقاصد الأخرى ونحا نحوه آخرون (ثانيها) الاعراب وقد اعتنى بهذا أقوام توسعوا في بيان وجوهه وما تحتمله الألفاظ منها (ثالثها) تتبع القصص

وقد سلك هذا المسلك أقوام زادوا فى قصص القرآن ماشاؤا من كتب التاريخ والاسرائيليات ولم يعتمدوا على التوراة والانجيل والكتب المعتمدة عند أهل الكتاب وغيرهم بل أخذوا جميع ماسمعوه عنهم من غير تفريق بين غث وسمين ولا تنقيح لما يخالف الشرع ولا يطابق العقل (رابعها) غريب القرآن (خامسها) الاحكام الشرعية من عبادات ومعاملات والاستنباط منها (سادسها) الكلام في أصول العقائد ومقارعة الزائغين ومحاجة المختلفين وللامام الرازي العناية الكبرى بهذا النوع (سابعها) المواعظ والرقائق وقد مزجها الذين ولعوا بها بحكايات المتصوفة والعبّاد وخرجوا ببعض ذلك عن حدود الفضائل والآداب التي وضعها القرآن (ثامنها) ما يسمونه بالاشارة وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية ومن ذلك التفسير الذي ينسبونه للشيخ الاكبر محي الدين ابن عربي. وانما هو للقاشاني الباطنى الشهير وفيه من النزغات مايتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز

وقد عرفت ان الاكثار في مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهى

ويذهب به في مذاهب تنسيه معناه الحقيقي لهذا كان الذي نعنَى به من التفسير هو ماسبق ذكره ويتبعه بلا ريب بيان وجوه البلاغة بقدر مايحتمله المعنى وتحقيق الاعراب على الوجه الذي يليق بفصاحة القرآن وبلاغته

ويمكن أن يقول بعض أهل هذا العصر لا حاجة الى التفسير والنظر في القرآن لان الائمة السابقين نظروا في الكتاب والسنة واستنبطوا الاحكام منهما فما علينا الا أن ننظر في كتبهم ونستغني بها . هكذا زعم بعضهم ولو صح هذا الزعم لكان طلب التفسير عبثاً يضيع به الوقت سدى وهو على مافيه من تعظيم شأن الفقه مخالف لاجماع الامة من النبي صلى الله عليه وسلم الى آخر واحد من المؤمنين ولا أدري كيف يخطر هذا على بال مسلم

الاحكام العملية التي جرى الاصطلاح على تسميتها فقهاً هى أقل ماجاء في القرآن وإن فيه من التهذيب ودعوة الارواح الى مافيه سعادتها ورفعها من حضيض الجهالة الى أوج المعرفة وارشادها الى طريقة الحياة الاجتماعية مالايستغني عنه من يؤمن بالله واليوم الآخر وماهو أجدر بالدخول فى الفقه الحقيقي

ولا يوجد هذا الارشاد الا في القرآن

وفيما أخذ منه كإحياء العلوم حظ عظيم من علم التهذيب ولكن سلطان القرآن على نفوس الذين يفهمونه وتأثيره في قلوب الذين يتلونه حق تلاوته لايساهمه فيه كلام كما ان الكثير من حِكَمه ومعارفه لم يكشف عنها اللثام ولم يفصح عنها عالم ولا إمام . ثم إن أئمة الدين قالوا إن القرآن سيبقى حجة على كل فرد من أفراد البشر الى يوم القيامة لحديث (والقرآن حجة لك أو عليك) ولا يعقل هذا الا بفهمه والاصابة من حكمته وحُكْمه

خاطب الله بالقرآن من كان في زمن التنزيل ولم يوجه الخطاب اليهم لخصوصية في أشخاصهم بل لأنهم من أفراد النوع الانساني الذي أنزل القرآن لهدايته . يقول الله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم) فهل يعقل انه يرضى منا بأن لانفهم قوله هذا ونكتفي بالنظر في قول ناظر نظر فيه لم يأتنا من الله وحيٌ بوجوب اتباعه لاجملة ولا تفصيلاً . كلا انه يجب على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته لافرق بين عالم وجاهل . يكفي العامي من فهم قوله تعالى (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون) الخ مايعطيه الظاهر

من الآيات، وأن الذين جمعت أوصافهم فى الآيات الكريمة لهم الفوز والفلاح عند الله تعالى ويكفي فى معرفة الاوصاف ان يعرف معنى الخشوع والاعراض عن اللغو وما لا خير فيه والاقبال على مافيه فائدة له دنيوية أو أخروية وبذل المال فى الزكاة والوفاء بالعهد وصدق الوعد والعفة عن اتيان الفاحشة وأن من فارق هذه الاوصاف الى اضدادها فهو المتعدي حدود الله المتعرض لغضبه . وفهم هذه المعاني مما يسهل على المؤمن من أي طبقة كان ومن أهل أى لغة كان ومن الممكن أن يتناول كل أحد من القرآن بقدر ما يجذب نفسه الى الخير ويصرفها عن الشر فان الله تعالى أنزله لهدايتنا وهو يعلم منا كل أنواع الضعف الذي نحن عليه . وهناك مرتبة تعلو على هذه وهى من فروض الكفاية

للتفسير مراتب أدناها أن يبين بالاجمال ما يُشرب القلب عظمة الله تعالى وتنزيهه ويصرف النفس عن الشر ويجذبها الى الخير وهذه هي التي قلنا أنها متيسرة لكل أحد وأما المرتبة العليا فهى لا تتم إلا بأمور

(أحدها) فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أُودعها

القرآن بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة غير مكتف بقول فلان وفهم فلان فان كثيراً من الالفاظ كانت تستعمل في زمن التنزيل لمعان ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد . من ذلك لفظ التأويل اشتهر بمعنى التفسير مطلقاً أو على وجه مخصوص ولكنه جاء فى القرآن بمعان أخرى كقوله تعالى (هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) فما هذا التأويل (١) يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة ليفرق بينها وبين ماورد فى الكتاب فكثيراً ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الثلاثة الأولى (٢) فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة فى عصر

---

(١) لا أتذكر أن الاستاذ ذكر معناه عند التمثيل وهو العاقبة وما يعد به (أى القرآن) من المثوبة والعقوبة

(٢) من ذلك لفظ الولي معناه فى القرآن غالباً الناصر والموالي وأولياء الله أنصار دينه من أهل الايمان والتقوى وقد اصطلحوا بعد ذلك على أن الاولياء صنف من الناس تظهر على أيديهم الخوارق ويتصرفون في الكون بما وراء الاسباب ولم يعرف الصحابة هذا المعنى

نزوله والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ما تكرر فى مواضع منه وينظر فيه فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ الهداية (سيأتي تفسيره فى الفاتحة) وغيره ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه. وقد قالوا ان القرآن يفسر بعضه ببعض وان أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق له من القول واتفاقه مع جملة المعنى وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته

(ثانيها) الأساليب فينبغي أن يكون عنده من علمها مايفهم به هذه الاساليب الرفيعة وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته مع التفطن لنكته ومحاسنه والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه. نعم اننا لانتسامى الى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام ولكن يمكننا فهم مانهتدي به بقدر الطاقة. ويحتاج فى هذا الى علم الاعراب وعلم الأساليب (المعانى والبيان) ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لايفيد المطلوب. ترون فى كتب العربية أن العرب كانوا مسددين فى النطق يتكلمون بما يوافق القواعد

قبل أن توضع . أتحسبون أن ذلك كان طبيعياً لهم : كلا وانما هى ملكة مكتسبة بالسماع والمحاكاة ولذلك صار أبناء العرب أشد عجمة من العجم عند ما اختلطوا بهم ولو كان طبيعياً ذاتياً لهم لما فقدوه فى مدة خمسين سنة من بعد الهجرة

(ثالثها) علم أحوال البشر — فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب وبين فيه ما لم يبينه فى غيره . بين فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعه والسنن الالهية فى البشر وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها فلا بد للناظر فى هذا الكتاب من النظر فى أحوال البشر فى أطوارهم وأدوارهم ومناشئ اختلاف أحوالهم من قوة وضعف وعز وذل وعلم وجهل وايمان وكفر ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه ويحتاج فى هذا الى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه

قال الاستاذ — أنا لا أعقل كيف يمكن لاحد ان يفسر قوله تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) الآية — وهو لا يعرف أحوال البشر وكيف اتحدوا وكيف تفرقوا وما معنى تلك الوحدة التى كانوا عليها وهل

كانت نافعة أم ضارّة وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم .
أجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الالهية وعن آياته فى السموات والارض وفى الآفاق والانفس وهو اجمال صادر عمن أحاط بكل شئ علما وأمرنا بالنظر والتفكر والسير فى الارض لنفهم اجماله بالتفصيل الذى يزيدنا ارتقاء وكمالا ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة فى ظاهره لكنّا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمة

(رابعها) العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن فيجب على المفسر القائم بهذا الفرض الكفائي أن يعلم ما كان عليه الناس فى عصر النبوة من العرب وغيرهم لان القرآن ينادي بأنّ الناس كلهم كانوا فى شقاء وضلال وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث به لهدايتهم وإسعادهم . وكيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة أو ما يقرب منها اذا لم يكن عارفا بأحوالهم وما كانوا عليه . هل يكتفى من علماء القرآن دعاة الدين والمناضلين عنه بالتقليد بأن يقولوا تقليداً لغيرهم إن الناس كانوا على باطل وأن القرآن دحض أباطيلهم فى الجملة . كلا .

(خامسها) العلم بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف فى الشؤون دنيويها وأخرويها = فعلم مما ذكرنا أن التفسير قسمان (احدهما) جافٌّ مبعد عن الله وكتابه وهو ما يقصد به حل الالفاظ واعراب الجمل وبيان ما ترمى اليه تلك العبارات والاشارات من النكت الفنية وهذا لاينبغى أن يسمى تفسيراً وانما هو ضرب من التمرين في الفنون كالنحو والمعانى وغيرهما و (ثانيهما) وهو التفسير الذى قلنا إنه يجب على الناس على أنه فرض كفاية هو الذى يستجمع تلك الشروط لاجل أن تستعمل لغايتها وهو ذهاب المفسر الى فهم مراد القائل من القول وحكمة التشريع فى العقائد والاخلاق والاحكام على الوجه الذى يجذب الارواح ويسوقها الى العمل والهداية المودعة في الكلام ليتحقق فيه معنى قوله (هدى ورحمة) ونحوهما من الاوصاف. فالمقصد الحقيقى وراء كل تلك الشروط والفنون وهو الاهتداء بالقرآن (قال الاستاذ) وهذا هو الغرض الاول الذى أرمي اليه فى قراءة التفسير

وتكلم الاستاذ أيضاً عن التفسير والتأويل في اصطلاح

العلماء ثم بين عظيم شأن تفسير القرآن وفهمه بما مثاله : مثلُ الناطقين بالعربية الآن — من العراق الى نهاية بلاد مراكش — بالنسبة الى العرب فى لغتهم كمثل قوم من الاعاجم مخالطين للعرب وجد في كلامهم بسبب المخالطة مفردات كثيرة من العربية فهؤلاء الاقوام أشد حاجة الى التفسير وفهم القرآن من المسلمين الاولين لاسيما من كانوا في القرن الثالث حيث بدئ بكتابة التفسير وأحسَّ المسلمون بشدة حاجتهم اليه ولا شك ان من يأتى بعدنا يكون احوج منا الى ذلك اذا بقينا على تقهقرنا ولكن اذا يسر الله لنا نهضة لاحياء لغتنا وديننا فربما يكون مَنْ بعدنا احسن حالا منا .

التفسير عند قومنا اليوم ومن قبل اليوم بقرون هو عبارة عن الاطلاع على ما قاله بعض العلماء فى كتب التفسير على ما فى كلامهم من اختلاف يتنزه عنه القرآن « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » وليت اهل العناية بالاطلاع على كتب التفسير يطلبون لانفسهم معنى تستقر عليه افهامهم فى العلم بمعاني الكتاب ثم يبثونه فى الناس ويحملونهم عليه . لم يطلبوا ذلك وانما طلبوا صناعة يفاخرون بالتفنن فيها ويمارون

فيها من يباريهم فى طلبها ولا يخرجون لإظهار البراعة فى تحصيلها عن حد الاكثار من القول واختراع الوجوه من التأويل والاغراب في الابعاد عن مقاصد التنزيل . ان الله تعالى لايسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس وما فهموه وانما يسألنا عن كتابه الذي أنزله لارشادنا وهدايتنا وعن سنة نبيه الذي بين لنا ما نزل الينا (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل اليهم) يسألنا هل بلغتكم الرسالة . هل تدبرتم ما بلغتم؟ هل عقلتم ما عنه نهيتم وما به امرتم؟ وهل عملتم بارشاد القرآن واهتديتم بهدي النبي واتبعتم سنته؟ عجباً لنا ننتظر هذا السؤال ونحن فى هذا الاعراض عن القرآن وهديه فيالغفلة والغرور

معرفتنا بالقرآن كمعرفتنا بالله تعالى — أول مايلقن الوليد عندنا من معرفة الله تعالى هو اسم (الله) تبارك وتعالى يتعلمه بالايمان الكاذبة كقوله (والله لقد فعلت كذاوكذا والله مافعلت كذا) وكذلك القرآن يسمع الصبيّ ممن يعيش معهم أنه كلام الله تعالى ولا يعقل معنى ذلك ثم لايعرف من تعظيم القرآن الا ما يعظمه به سائر المسلمين الذين يتربى بينهم وذلك بامرين (أحدهما) اعتقاد أن آية كذا اذا كتبت ومحيت

بماء وشربه صاحب مرض كذا يشفى وأن من حمل القرآن لايقربه جن ولا شيطان ويبارك له فى كذا وكذا إلى غير ذلك مما هو مشهور ومعروف للعامة اكثر مما هو معروف للخاصة . ومع صرف النظر عن صحة هذا وعدم صحته نقول إن فيه مبالغة فى التعظيم عظيمة جداً ولكنها (وياللأسف) لاتزيد عن تعظيم التراب الذى يؤخذ من بعض الاضرحة ابتغاء هذه المنافع والفوائد نفسها . ونحو هذا مايعلق على الاطفال من التعاويذ والتناجيس كالخرق والعظام والتمائم المشتملة على الطلسمات والكلمات الاعجمية المنقولة عن بعض الامم الوثنية . هذا الضرب من تعظيم القرآن نسميه اذا جرينا على سنة القرآن عبادة للقرآن لا عبادة لله به (ثانيهما) الهزّة والحركة المخصوصة والكلمات المعلومة التى تصدر ممن يسمعون القرآن اذا كان القارئ رخيم الصوت حسن الأداء عارفا بالتطريب على أصول النغم والسبب فى هذه اللذة والنشوة هو حسن الصوت والنغم بل أقوى سبب لذلك هو بعد السامع عن فهم القرآن وأعني بالفهم ما يكون عن ذوق سليم تصيبه أساليب القرآن بعجائبها وتملكه مواعظها فتشغله عما بين يديه

مما سواه . لا أريد الفهم المأخوذ بالتسليم الاعمى من الكتب أخذاً جافاً لم يصحبه ذلك الذوق وما يتبعه من رقة الشعور ولطف الوجدان اللذين هما مدار التعقل والتأثر والفهم والتدبر . لهذا كله يمكننا أن نقول ان الجاهلية اليوم أشد من الجاهلية والضالين فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم لان من أولئك من قال الله تعالى فيهم (يعرفونه كما يعرفون ابناءهم) ومعرفة الحق أمر عظيم شريف نعم ربما كان اثم صاحبها مع الجحود أشد ولكنه يكون دائما ملوماً من نفسه على الاعراض عن الحق وهذا اللوم يزلزل مافى نفسه من الاصرار على الباطل

كان البدوىّ راعي الغنم يسمع القرآن فيخر له ساجداً لما عنده من رقة الاحساس ولطف الشعور فهل يقاس هذا بأي متعلم اليوم؟ . أرأيت أهل جزيرة العرب كيف انضووا الى الاسلام بجاذبية القرآن لما كان لهم من رقة المدارك التى كانت سبب الانجذاب الى الحق . وأشار الاستاذ هنا الى البنت الاعرابية التى فطنت لاشتمال الآية الآتية على أمرين ونهيين وبشارتين . ومجمل الخبر أن الاصمعي قال سمعت بنتاً من الاعراب خماسية أو سداسية تُنشد

استغفر الله لذنبي كله   قتلت انسانا بغير حله
مثل غزال ناعم في دله   وانتصف الليل ولم أصله

فقلت لها قاتلك الله ما أفصحك فقالت ويحك أيعد هذا فصاحة مع قوله تعالى « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفتِ عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه اليكِ وجاعلوه من المرسلين » فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين

لما رأى علماء المسلمين في الصدر الاول تأثير القرآن في جذب قلوب الناس إلى الاسلام وأن الاسلام لايحفظ الا به ولما كان العرب قد اختلطوا بالعجم وفهم من دخل في الاسلام من الاعاجم ما فهمه علماء العرب أجمع كلٌّ على وجوب حفظ اللغة العربية ودونوا لها الدواوين ووضعوا لها الفنون . نعم إن الاشتغال بلغة الامة وآدابها فضيلة في نفسه ومادة من مواد حياتها ولا حياة لامة ماتت لغتها ولكن لم يكن هذا وحده هو الحامل لسلف الامة على حفظ اللغة بمفرداتها وأساليبها وآدابها وانما الحامل لهم على ذلك ما ذكرنا . ألف العلامة الاسفرايني كتابا في الفِرَق ختمه بذكر أهل السنة

ومزاياهم وعدّ من فضائلهم التى امتازوا بها على سائر الفرق التبريز فى اللغة وآدابها وبيّن ذلك بأجلى بيان . فاين هذه المزايا وأين آثارها فى فهم القران بل وفهم ما دونه من الكلام البليغ؟ وقد بيّنا وجه الحاجة فى التفسير الى تحصيل ملكة الذوق العربي والى غير ذلك من الامور التى يتوقف عليها فهم القران

﴿ سورة الفاتحة ﴾

سميت الفاتحة فاتحة لأنها أول القرآن فى هذا الترتيب (وتكلم عن لفظ الفاتحة وعن التاء فيه) وتسمى أم الكتاب وقالوا إن حديث النهي عن تسميتها هذا الاسم موضوع . ثمّ قال . يتكلمون عند الكلام عن السور على المكي والمدنيّ وهو يفيد فى معرفة الناسخ والمنسوخ وليس فى الفاتحة ناسخ ولا منسوخ وهى مكية خلافاً لمجاهد فالاجماع على أن الصلاة كانت بالفاتحة لاول فرضيتها ولا ريب أن ذلك كان فى مكة وقالوا هى المراد بالسبع المثانى فى قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقران العظيم) وهو مكي بالنص . وقال بعضهم انها نزلت مرتين مرة بمكة عند فرضية الصلاة وأخرى بالمدينة حين حوّلت القبلة وكأن صاحب هذا القول اراد الجمع بين

القولين وليس بشيء . وقال كثيرون انها أول سورة أنزلت بتمامها ثم رجح الاستاذ الحكيم انها أول مانزل على الاطلاق ولم يستثن قوله تعالى (إقرأ باسم ربك) ونزع فى الاستدلال على ذلك منزعا غريباً فى حكمة القران وفقه الدين فقال ما مثاله

ومن آية ذلك ان السنة الالهية فى هذا الكون سواء كان كون ايجاد او كون تشريع ان يُظهر سبحانه الشيء مجملا ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجاً وما مثل الهدايات الالهية الا مثل البذرة والشجرة العظيمة فهى فى بدايتها مادة حياة تحتوي على جميع اصولها ثم تنمو بالتدريج حتى تسبق فروعها بعد ان تعظم دوحتها ثم تجود عليك بثمرها . والفاتحة مشتملة على مجمل مافى القرآن وكل مافيه تفصيل للاصول التى وضعت فيها ولست أعنى بهذا مايعبرون عنه بالاشارة ودلالة الحروف كقولهم ان أسرار القرآن فى الفاتحة وأسرار الفاتحة فى البسملة وأسرار البسملة فى الباء وأسرار الباء فى نقطتها فان هذا لم يثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه عليهم الرضوان ولا هو معقول فى نفسه وانما هو من مخترعات الغلاة الذين ذهب بهم الغلو إلى اعدام القران خاصته وهى البيان

(قال) وبيان ما أريد أن مانزل القران لاجله أمور (أحدها)التوحيد لان الناس كانوا كلهم وثنيين وان كان بعضهم يدعي التوحيد (ثانيها) وعد من أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة ووعيد من لم يأخذ به وإنذاره بسوء العقوبة . والوعد يشمل ما للامة وما للافراد فيعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما والوعيد كذلك يشمل نقمهما وشقاءهما فقد وعد الله المؤمنين بالاستخلاف فى الارض والعزة والسلطان والسيادة وأوعد المخالفين بالخزي والشقاء فى الدنيا كما وعد فى الآخرة بالجنة والنعيم وأوعد بنار الجحيم (ثالثها) العبادة التى تحيي التوحيد فى القلوب وتُثبته فى النفوس (رابعها) بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه الموصل الى نعم الدنيا والآخرة (خامسها) قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ باحكام دينه وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهرياً لاجل الاعتبار واختيار طريق المحسنين

هـذه هي الامور التي احتوى عليها القران وفيها حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية والفاتحة مشتملة عليها اجمالا بغير ماشك ولا ريب . فاما التوحيد ففى قوله تعالى (الحمد

لله رب العالمين) لانه ناطق بان كل حمد وثناء يصدر عن نعمة ما فهو له تعالى ولا يصح ذلك الا اذا كان سبحانه مصدر كل نعمة فى الكون تستوجب الحمد ومنها نعمة الخلق والايجاد والتربية والتنمية ولم يكتف باستلزام العبارة لهذا المعنى فصرح به بقوله (رب العالمين) ولفظ (رب) ليس معناه المالك والسيد فقط بل فيه معنى التربية والانماء وهو صريح بان كل نعمة يراها الانسان فى نفسه وفى الآفاق منه عز وجل فليس فى الكون متصرف بالايجاد والاشقاء والاسعاد سواه

التوحيد أهم ماجاء لاجله الدين ولذلك لم يكتف فى الفاتحة بمجرد الاشارة اليه بل استكمله بقوله (اياك نعبد وإياك نستعين) فاجتث بذلك جذور الشرك والوثنية التى كانت فاشية فى جميع الامم وهى اتخاذ أولياء من دون الله تعتقد لهم السلطة الغيبية ويدعون لذلك من دون الله ويستعان بهم على قضاء الحوائج فى الدنيا ويتقرب بهم الى الله زلفى وجميع ما فى القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا الاجمال

واما الوعد والوعيد فالأول منهما مطويٌّ فى (بسم الله الرحمن الرحيم) فذكرُ الرحمة فى أول الكتاب — وهي التى وسعت كل شئ — وعدٌ بالاحسان لاسيما وقد كررها مرة ثانية تنبيها لنا على أن أمره إيانا بتوحيده وعبادته رحمة منه سبحانه بنا لأنه لمصلحتنا ومنفعتنا . وقوله تعالى (مالك يوم الدين) يتضمن الوعد والوعيد معاً لان معنى الدين الخضوع أى إن له تعالى فى ذلك اليوم السلطان المطلق والسيادة التى لا نزاع فيها لا حقيقة ولا ادّعاء وأن العالم كله يكون فيه خاضعاً لعظمته ظاهراً وباطناً يرجو رحمته ويخشى عذابه وهذا يتضمن الوعد والوعيد . أو معنى الدين الجزاء وهو إما ثواب للمحسن واما عقاب للمسئ وذلك وعد ووعيد . وزد على ذلك أنه ذكر بعد ذلك (الصراط المستقيم) وهو الذى من سلكه فاز ومن تنكّبه هلك وذلك يستلزم الوعد والوعيد

وأما العبادة فبعد أن ذكرت فى مقام التوحيد بقوله « اياك نعبد واياك نستعين » أوضح معناها بعض الإيضاح بقوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) أى انه قد وضع لنا صراطاً سيبينه ويحدده ويكون مناط السعادة في الاستقامة عليه والشقاء فى

الانحراف عنه وهذه الاستقامة عليه هى هداية العبادة ويشبه هذا قوله تعالى (والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) فالتواصى بالحق والصبر هو كمال العبادة بعد التوحيد . والفاتحة بجملتها تنفخ روح العبادة فى المتدبر لها وروح العبادة هى إشراب القلوب خشية الله وهيبته والرجاء لفضله لا الأعمال المعروفة من فعل وكفٍّ وحركات اللسان والأعضاء فقد ذكرت العبادة فى الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها والصيام وأيامه وكانت هذه الروح فى المسلمين قبل أن يكلفوا بهذه الاعمال البدنية وقبل نزول أحكامها التى فصلت فى القرآن تفصيلا ما وانما الحركات والاعمال مما يتوسل به الى حقيقة العبادة ومخ العبادة الفكر والعبرة

وأما الاخبار والقصص ففى قوله تعالى (صراط الذين أنعمت عليهم) تصريح بأن هنالك قوما تقدموا وقد شرع الله شرائع لهدايتهم وصائح يصيح ألا فانظروا فى الشؤون العامة التى كانوا عليها واعتبروا بها . كما قال تعالى لنبيه يدعوه الى الاقتداء بمن كان قبله من الانبياء (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)

حيث بين أن القصص انما هو للعظة والاعتبار . وفى قوله تعالى (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) تصريح بأن مَن دون المنعم عليهم فريقان فريق ضلّ عن صراط الله وفريق جاحده وعاند من يدعو اليه فكان محفوفاً بالغضب الالهيّ والخزي فى هذه الحياة الدنيا . وباقى القرآن يفصل لنا فى أخبار الأمم هذا الاجمال على الوجه الذي يفيد العبرة فيشرح حال الظالمين الذين قاوموا الحق وحال الذين حافظوا عليه وصبروا على ما أصابهم فى سبيله .

فتبين من مجموع ماتقدم أن الفاتحة قد اشتملت إجمالا على الأصول التى يفصلها القرآن تفصيلا فكان انزالها أولا موافقاً لسنة الله تعالى فى الابداع . وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى (أم الكتاب) كما نقول إن النواة أم النخلة فان النواة مشتملة على شجرة النخلة كلها حقيقة لا كما قال بعضهم ان المعنى فى ذلك أن الأم تكون أولا ويأتي بعدها الاولاد

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

لا أذكر ماقاله الاستاذ فى البسملة من حيث لفظها واعرابها وهل هى آية أو جزء آية ومن الفاتحة أوليست منها فان الخلاف فى ذلك مشهور وقد إختصر الاستاذ القول فيه اختصاراً وقال انها على كل حال من القرآن فنتكلم عليها كسائر الآيات

القرآن امامنا وقدوتنا فافتتاحه بهذه الكلمة ارشاد لنا بأن نفتتح أعمالنا بها فما معنى هذا ؟. ليس معناه أن نفتتح اعمالنا باسم من أسماء الله تعالى بأن نذكره على سبيل التبرك أو الاستعانة به بل أَنْ نقول هذه العبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) فإنها مطلوبة لذاتها

عند ماتقول انى اذكر اسم الله تعالى كالعزيز والحكيم لاتعنى انك تذكر لفظ (اسم) فلوكان قولهم ان المراد من الابتداء بالكلمة « بسم الله » التبرك باسم الله هو الصواب لكان ينبغي ان يكون قولك (بالله الرحمن الرحيم) مثل (بسم الله الرحمن الرحيم) وقوله تعالى (باسم الله مجراها

ومرساها) وقد قال بعضهم إن الاضافة ههنا للبيان أى أفتتح كلامي باسم هو الله ولكن هذا يقتضى أن يكون لفظ الرحمن الرحيم وارداً على اللفظ وهو غير صحيح وإرادة أن الاسماء الثلاثه هى المبينة للفظ الاسم تمحلٌ ظاهر فما المقصود اذاً من هذا التعبير ؟

مثل هذا التعبير مألوف عند جميع الأمم ومنهم العرب وهو أن الواحد منهم اذا أراد أن يفعل أمراً مّا لاجل أمير أو عظيم بحيث يكون متجرداً من نسبته اليه ومنسلخاً عنه يقول أعمله باسم فلان ويذكر اسم ذلك الامير او السلطان لان اسم الشيء دليل وعنوان عليه

فاذا كنت أعمل عملا لا يكون له وجود ولا عنه أثر، لولا السلطان الذى به أمر، أقول إن عملي هذا باسم السلطان اى أنه معنون باسمه ولولاه لما عملته. فمعنى ابتدىء عملي (بسم الله الرحمن الرحيم) أنى عمل بأمره وله لا لي ولا اعمله باسمي مُستقِلا به على انى فلان فكأنى أقول ان هذا العمل لله لا لحظ نفسي وفيه وجه آخر وهو أن القدرة التى انشأت بها العمل هى من الله تعالى فلولا ما منحني منها لم أعمل شيئاً فلم يصدر عنى

هذا العمل الا باسم الله ولم يكن باسمي اذ لولا ما آتاني من القوة عليه لم أستطع أن آتيه وقدتم هذا المعنى بلفظ (الرحمن الرحيم) كما هو ظاهر. وحاصل المعنى أنى أعمل عملي متبرئاً من أن يكون باسمي بل هو باسمه تعالى لانني استمد القوة والعناية منه وارجو إحسانه عليه فلولاه لم أقدر عليه ولم أعمله بل وما كنت عاملا له على تقدير القدرة عليه لولا أمره ورجاء فضله فلفظ الاسم معناه مراد ومعنى لفظ الجلالة مراد أيضاً وكذلك كل من لفظ الرحمن والرحيم. وهذا الاستعمال معروف مألوف فى كل اللغات واقربه اليكم اليوم ما ترونه فى المحاكم النظامية حيث يبتدؤن الاحكام قولا وكتابة باسم السلطان فلان أو الخديو فلان

ومعنى البسملة فى الفاتحة أن جميع مايقرر فى القرآن من الاحكام والآيات وغيرها هو لله ومنه ليس لأحد غير الله فيه شئ

واختصر الاستاذ فى الكلام على لفظ اسم ولفظ الجلالة لان الكلام فيهما مشهور. قال والرحمن والرحيم مشتقان من الرحمة وهي معنى يلم بالقلب فيبعث صاحبه ويحمله على الاحسان الى غيره وهو محال على الله تعالى بالمعنى المعروف عند البشر

لأنه فى البشر ألم فى النفس شفاؤه الاحسان والله تعالى منزه عن الآلام والانفعالات فالمعنى المقصود بالنسبة اليه من الرحمة أثرها وهو الاحسان . وقد مشى الجلال فى تفسيره وتبعه الصبان على أن الرحمن والرحيم بمعنى واحد وان الثاني تأكيد للأول ومن العجيب أن يصدر مثل هذا القول عن عالم مسلم وما هي الا غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها

(قال الاستاذ) وأنا لا أجيز لمسلم أن يقول فى نفسه أو بلسانه ان فى القران كلمة تغاير اخرى ثم تأتي لمجرد تأكيد غيرها بدون ان يكون لها فى نفسها معنى تستقل به نعم قد يكون فى معنى الكلمة مايزيد معنى الاخرى تقريراً اوايضاحا ولكن الذى لا اجيزه ان يكون معنى الكلمة هوعين معنى الاخرى بدون زيادة ثم يؤتى بها لمجرد التأكيد لاغير بحيث تكون مما يسمى بالمترادف فى عرف اهل اللغة فان ذلك لا يقع الا فى كلام من يرمي فى لفظه الى مجرد التنميق والتزويق وفى العربية طرق للتأكيد ليس هذا منها واما ما يسمونه بالحرف الزائد الذى يأتي للتأكيد فهو حرف وضع لذلك ومعناه هو التأكيدوليس معناه معنى الكلمة التي يؤكدها فالباء فى قوله تعالى

«وكفى بالله شهيداً» تؤكد معنى اتصال الكفاية بجانب الله جل شأنه بذاتها ومعناها الذي وضعت له ومعنى وصفها بالزيادة انها كذلك فى الاعراب وكذلك معنى من فى قوله «وماهم بضارين به من أحد الا باذن الله» ونحو ذلك. اما التكرار للتأكيد أو التقريع أو التهويل فامر سائغ فى أبلغ الكلام عند ما يظهر ذلك القصد منه كتكرار جملة «فبأي آلاء ربكما تكذبان» ونحوها عقيب ذكر كل نعمة وهى عند التأمل ليست مكررة فان معناها أفبهذه النعمة تكذبان وهكذا كل ماجاء فى القرآن على هذا النحو

والجمهور على أن معنى الرحمن المنعم بجلائل النعم ومعنى الرحيم المنعم بدقائقها وبعضهم يقول أن الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم والرحيم المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين وكل هذا تحكم فى اللغة مبني على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ولكن الزيادة تدل على زيادة الوصف مطلقاً فصفة الرحمن تدل على كثرة الاحسان الذى يعطيه سواء كان جليلا أو دقيقاً وأما كون افراد الاحسان التى يدل عليها اللفظ الاكثر حروفا أعظم من أفراد الاحسان التى يدل عليها

اللفظ الأقل حروفا فهو غير معنيّ ولا مراد. وقد قارب من قال ان معنى الرحمن المحسن بالاحسان العام ولكنه أخطأ فى تخصيص مدلول الرحيم بالمؤمنين ولعل الذى حمل من قال إن الثانى مؤكد للاول على قوله هذا هو عدم الاقتناع بما قالوه من التفرقة مع عدم التفطن لما هو أحسن منه

(قال الاستاذ) والذى أقول: ان صيغة فعلان تدل على وصف فعليّ فيه معنى المبالغة كفعّال وهو فى استعمال اللغة للصفات العارضة كعطشان وغرثان وغضبان وأما صيغة فعيل فأنها تدل فى الاستعمال على المعانى الثابتة كالأخلاق والسجايا فى الناس كعليم وحكيم وحليم وجميل . والقرآن لايخرج عن الأسلوب العربيّ البليغ فى الحكاية عن صفات الله عز وجل التى تعلو عن مماثلة صفات المخلوقين فلفظ الرحمن يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهى إفاضة النعم والاحسان ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمة والاحسان وعلى انها من الصفات الثابتة الواجبة . وبهذا المعنى لايستغنى بأحد الوصفين عن الآخر ولا يكون الثانى مؤكداً للاول فاذا سمع العربي وصف الله جل ثناؤه بالرحمن وفهم منه انه المفيض للنعم

فعلاً لا يعتقد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائما لأن
الفعل قد ينقطع اذا كان لم يكن عن صفة لازمة ثابتة وان كان
كثيراً فعند مايسمع لفظ الرحيم يكمل اعتقاده على الوجه الذي
يليق بالله تعالى ويرضيه سبحانه ويعلم ان لله صفة ثابتة هى صفة
الرحمة التى عنها يكون أثرها وان كانت تلك الصفة على غير مثال
صفات المخلوقين ويكون ذكرها بعد الرحمن كذكر الدليل
بعد المدلول ليقوم برهاناً عليه

﴿ الحمدُ لله ربِّ العالمين الرَّحمنِ الرَّحيمْ ﴾

تعلمون أن معنى الحمد الثناء باللسان وقيدوه بالجميل لأن
كلمة (ثناء) تستعمل في المدح والذم جميعاً يقال أثنى عليه شراً
كما يقال أثنى عليه خيراً ويقولون إن (أل) التى فى الحمد هى
للجنس فى أيّ فرد من أفراده لا للاستغراق ولا للعهد
المخصوص لأنه لا يصار الى كلٍ منهما فى فهم الكلام الا بدليل
وهو غير موجود فى الآية

ومعنى كون الحمد لله تعالى بأى نوع من أنواعه هو أن
أىّ شئ يصح الحمد عليه فهو مصدره واليه مرجعه فالحمد له على
كل حال

وهذه الجملة خبرية ولكنها استعملت لإنشاء الحمد . فأما معنى الخبرية فهو إثبات أن الثناء الجميل فى أيّ أنواعه تحقق فهو ثابت له تعالى وراجع اليه لأنه متصف بكل مايحمد عليه الحامدون فصفاته أجمل الصفات واحسانه عمّ جميع الكائنات ولأن جميع ما يصح أن يتوجه اليه الحمد مما سواه فهو منه جلّ ثناؤه اذ هو مصدر الكون كله فيكون له ذلك الحمد أوّلاً وبالذات. والخلاصة أن أيّ حمد يتوجه الى محمود مّا فهو لله تعالى سواء لاحظه الحامد أو لم يلاحظه وأما معنى الإنشائية فهو أن الحامد جعلها عبارة عما وجهه من الثناء الى الله تعالى فى الحال « رب العالمين » يشعر هذا الوصف ببيان وجه الثناء المطلق ومعنى الرب السيد المربي الذى يسوس مسوده ويربيه ويدبره و (العالمين) جمع عالم جمعه جمع المذكر العاقل تغليباً وأراد به جميع الكائنات الممكنة اى أنه رب كل ما يدخل فى مفهوم لفظ العالم . وما جمعت العرب لفظ العالم هذا الجمع الا لنكتة تلاحظها فيه وهى أن هذا اللفظ لا يطلق عندهم على كل كائن وموجود كالحجر والتراب وانما يطلقونه على كل جملة متمايزة لأفرادها صفات تقرّبها من العاقل الذى

جُمعت جمعه ان لم تكن منه فيقال عالم الانسان وعالم الحيوان وعالم النبات . وأنتم ترون أن هذه الاشياء هى التى يظهر فيها معنى التربية الذى يعطيه لفظ رب لأن فيها مبدأها وهو الحياة والتغذي والتوالد وهذا ظاهر فى النبات لاسيما لمن يقرأ شيئاً من علمه كما هو ظاهر فى الحيوان . ولقد كان السيد رحمه الله تعالى يقول الحيوان شجرة قطعت رجلها من الارض فهى تمشي والشجرة حيوان ساخت رجلاه فى الارض فهو قائم فى مكانه يأكل ويشرب وان كان لاينام ولا يغفل

« الرحمن الرحيم » تقدم معناهما وبقي الكلام فى اعادتهما والنكتة فيها ظاهرة وهى أن تربيته للعالمين ليست لحاجة به اليهم لجلب منفعة أودفع مضرة وانما هى لعموم رحمته وشمول إحسانه . وثمَّ نكتة أخرى وهى أن البعض يفهم من معنى الرب الجبروت والقهر فأراد الله تعالى أن يذكرهم برحمته وإحسانه ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال فذكر الرحمن وهو المفيض للنعم بسعة وتجدد لامنتهى لهما والرحيم الثابت له وصف الرحمة لا تزايله أبداً فكأن الله تعالى أراد أن يتحبب الى عباده فيعرفهم أنَّ ربوبيته لهم ربوبية رحمة واحسان ليعلموا أن هذه الصفة

هي التى ربما يرجع اليها معنى الصفات وليتعلقوا به ويُقبلوا على اكتساب مرضاته منشرحة صدورهم مطمئنة قلوبهم ولا ينافى عموم الرحمة وسبقها ما شرعه الله من العقوبات فى الدنيا وما اعدَّه من العذاب فى الآخرة للذين يتعدون الحدود وينتهكون الحرمات فانه وان سُمِّيَ قهراً بالنسبة لصورته ومظهره فهو فى حقيقته وغايته من الرحمة لأن فيه تربية للناس وزجراً لهم عن الوقوع فيما يخرج عن حدود الشريعة الآلهية وفي الانحراف عنها شقاؤهم وبلاؤهم وفى الوقوف عندها سعادتهم ونعيمهم والوالد الرؤف يربِّي ولده بالترغيب فيما ينفعه والاحسان عليه إذا قام به وربما لجأ الى الترهيب والعقوبة اذا اقتضت ذلك الحال ولله المثَلُ الأعلى لا إله الا هو واليه يرجعون

﴿ مَالكِ يومِ الدِّينِ ﴾

بيَّن الاستاذ أولاً أن فى الآية قراءتين وذكر من قرأ (مالك) ومن قرأ مَلِك والفرق بينهما وقال . قال بعضهم ان قراءة مَلِك أبلغ لأن هذا اللفظ يفهم منه معنى السلطان والقوة والتدبر وقال آخرون ان القراءة الاخرى أبلغ لان الملك هو الذي يدبر أعمال رعيته العامة ولا تصرُّف له بشيء من شؤونهم

الخاصة . وانما تظهر هذه التفرقة فى عبد مملوك فى مملكة لها سلطان ولا ريب ان مالكه هو الذي يتولىَّ جميع شؤونه دون سلطانه . و (الدّين) يطلق فى اللغة على المكافأة وورد (كما تدين تدان) وقال الشاعر

ولم يبق سوى العدوا ن دنّاهم كما دانوا

وعلى الجزاء وهو قريب من معنى المكافأة . وعلى الطاعة وعلى الإخضاع وعلى السياسة يقال (ديّن فلان فلانا) أي تولى سياسته وهو قريب من معنى الاخضاع وعلى الشريعة وما يؤخذ العباد به من التكاليف . والمناسب هنا من هذه المعاني الجزاء والخضوع

وانما قال « يوم الدين » ولم يقل (الدين) لتعريفنا بأن للدين يوماً ممتازاً عن سائر الايام وهو اليوم الذي يلقى فيه كل عامل عمله ويوفىَّ جزاءه . ولسائل أن يسأل : أليست كل الايام أيام جزاء وكل ما يلاقيه الناس فى هذه الحياة من البؤس هو جزاء على تفريطهم فى أداء الحقوق والقيام بالواجبات التى عليهم . والجواب بلى إن ايامنا التى نحن فيها قد يقع فيها الجزاء على أعمالنا ولكن ربما لا يظهر لاربابه الا على بعضها دون جميعها .

والجزاء على التفريط فى العمل الواجب انما يظهر فى الدنيا ظهوراً تاما بالنسبة لمجموع الأمة لا لكل فرد من الافراد فما من أمة انحرفت عن صراط الله المستقيم ولم تراع سنته في خليقته الا وأحل بها العدل الالهي ما تستحق من الجزاء كالفقر والذل وفقد العزة والسلطة . واما الافراد فاننا نرى كثيراً من المسرفين الظالمين يقضون أعمارهم منغمسين في الشهوات واللذات نعم ان ضمائرهم توبخهم أحيانا وأنهم لا يسلمون من المنغّصات وقد يصيبهم النقص فى أموالهم وعافية أبدانهم وقوة عقولهم ولكن هذا كله لا يقابل بعض أعمالهم القبيحة لاسيما الملوك والامراء الذين تشقى باعمالهم السيئة أممٌ وشعوب كذلك نرى من المحسنين فى أنفسهم وللناس من يُبتلى بهضم الحقوق ولا ينال من الجزاء على عمله شيئاً مما يستحقه وان كان قد ينال من الجزاء رضى نفسه وسلامة اخلاقه وصحة ملكاته ولكن ذلك ليس كل مايستحق . وفى ذلك اليوم يوفى كل فرد من أفراد العاملين جزاءه كاملاً لا ينقصه شيء منه كما قال الله تعالى « فمن يعمل مثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَه . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »

علَّمنا الله تعالى انه رحمن رحيم ليجذب قلوبنا اليه ولكن هل يشعر كل عباده بهذه المنة فينجذبوا اليه الانجذاب المطلوب ؟ كلا أليس فينا من يسلك كل سبيل لا يبالي بمستقيم ومعوج ؟ بلى ولهذا أعقب سبحانه ذكر الرحمة بذكر الدين فعرّفنا انه يدين العباد ويجازيهم على أعمالهم فكان من رحمته بعباده أن ربَّاهم بنوعي التربية كليهما الترغيب والترهيب كما تشهد بذلك آيات القرآن الكثيرة « نَبِّئْ عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأنَّ عذابي هو العذاب الأليم »

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

ماهي العبادة ؟ يقولون هي الطاعة مع غاية الخضوع وما كل عبارة تمثِّل المعنى تمام التمثيل ، وتجلّيه للافهام واضحاً لا يقبل التأويل ، فكثيراً ما يفسرون الشيء ببعض لوازمه ويعرِّفون الحقيقة برسومها بل يكتفون أحيانا بالتعريف اللفظي ويبينون الكلمة بما يقرب من معناها ومن ذلك هذه العبارة التي شرحوا بها معنى العبادة فإن فيها اجمالا وتساهلا . وانا اذا تتبعنا آيَ القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب لعَبَدَ وما يماثلها ويقاربها في المعنى كخضعَ وخنع وأَطاع وذلَّ نجد أنه لا شيء

من هذه الالفاظ يضاهي (عبد) ويحل محلها ويقع موقعها ولذلك قالوا ان لفظ (العباد) مأخوذ من العبادة فتكثر اضافته الى الله تعالى . ولفظ (العبيد) تكثر اضافة الى غير الله تعالي لانه مأخوذ من العبودية بمعنى الرِّق وفرقٌ بين العبادة والعبودية بذلك المعنى ومن هنا قال بعض العلماء إن العبادة لا تكون فى اللغة الا لله تعالى ولكن استعمال القرآن يخالفه . يغلو العاشق فى تعظيم معشوقه والخضوع له غلوًّا كبيراً حتى يفنى هواه فى هواه وتذوب إرادته فى إرادته ومع ذلك لا يسمّى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة ويبالغ كثير من الناس فى تعظيم الرؤساء والملوك والامراء فترى من خضوعهم لهم وتحرّيهم مرضاتهم مالا تراه من المتحنثين القانتين فضلا عن سائر العابدين ولم يكن العرب يسمون شيئاً من هذا الخضوع عبادة فما هي العبادة إذاً ؟ تدل الاساليب الصحيحة والاستعمال العربي الصراح على ان العبادة ضرب من الخضوع بالغٌ حد النهاية ناشئ عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها . واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وما هيتها . وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق ادراكه . فمن ينتهى

الى أقصى الذل لملك من الملوك لايقال إنهُ عبده وإن قبَّل مواطئ أقدامه مادام سبب الذل والخضوع معروفاً وهو الخوف من ظلمه المعهود . أو الرجاء بكرمه المحدود . اللهم الا بالنسبة للذين يعتقدون أن الملك قوة غيبيةٌ سماوية أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى ، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا ، لأنهم أطيب عنصراً ، وأكرم جوهراً ، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد ، الى الكفر والإلحاد ، فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً وعبدوهم عبادة حقيقية . للعبادة صُوَر كثيرة فى كل دين من الاديان شرعت لتذكير الأنسان بذلك الشعور بالسلطان الالهي الاعلى الذى هو روح العبادة وسرّها ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر فى تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه والأثر انما يكون عن ذلك الروح والشعور الذى قلنا انه منشأ التعظيم والخضوع فاذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة كما أن صورة الانسان وتمثاله ليس انسانا

خذ اليك عبادة الصلاة مثلا وانظر كيف أمر الله باقامتها دون مجرد الاتيان بها واقامة الشيء هي الاتيان به مقوماً كاملا يصدر عن علته وتصدر عنه آثاره . وآثار الصلاة ونتائجها

هي ما أنبأنا الله تعالى بها بقوله « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وقوله عز وجل « إن الانسان خُلِقَ هلوعا اذا مسه الشر كان جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين » وقد توعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والالفاظ مع السهو عن معنى العبادة وسرها فيها المؤدي الى غايتها بقوله « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤن ويمنعون الماعون » فسماهم مصلين لانهم أتوا بصورة الصلاة ووصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقية التى هي توجه القلب الى الله تعالى المذكر بخشيته والمشعر للقلوب بعظيم سلطانه ثم وصفهم بأثر هذا السهو وهو الرياء ومنع الماعون . وذكر الاستاذ أن الرياء ضربان رياء النفاق وهو العمل لاجل رؤية الناس ورياء العادة وهو العمل بحكمها من غير ملاحظة معنى العمل وسره وفائدته ولا ملاحظة من يعمل له ويتقرب اليه به وهو ما عليه أكثر الناس فإن صلاة أحدهم فى طور الرشد والعقل هى عين ما كان يحاكي به أباهُ فى طور الطفولية عند ما يراه يصلي — يستمر على ذلك بحكم العادة من غير فهم ولا عقل وليس لله شيء فى هذه الصلاة . وقد ورد فى أحاديث كثيرة أن من لم

تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعداً وأنها تلف كما يلف الثوب البالى ويضرب بها وجهه . وأما الماعون فهو المعونة والخير الذى تقدم في الآية الاخرى أن من شأن الانسان أن يكون منوعاً له الا المصلين

والاستعانة هي طلب المعونة والمعونة هي سد العجز والمساعدة على اتمام العمل الذى يعجز عنه المستعين بنفسه

ثم تكلم الاستاذ على حصر العبادة والاستعانة فى الله تعالى الذى دلّ عليه تقديم المفعول (اياك) على الفعل فقال ما مثاله

أمرنا الله تعالى بان لا نعبد غيره لان السلطة الغيبية التى هى وراء الاسباب ليست الا له دون غيره فلا يشاركه فيها أحد فيعظمَ تعظيم العبادة وأمرنا بان لا نستعين بغيره أيضاً وهذا يحتاج الى البيان لانه أمرنا أيضاً في آيات أخرى بالتعاون « وتعاونوا على البر والتقوى » فما معنى الاستعانة به مع ذلك ؟

الجواب أن كل عمل يعمله الانسان تتوقف ثمرته ونجاحه على حصول الاسباب التى اقتضت الحكمة الالهية أن تكون مؤديةً اليه وانتفاء الموانع التى من شأنها بمقتضى الحكمة أن

تحول دونه وقد مكَّن الله تعالى الانسان بما أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الاسباب وحجب عنه البعض الآخر فيجب علينا أن نقوم بما فى استطاعتنا من ذلك ونبذل فى إتقان أعمالنا كل مانستطيع من حولٍ وقوة وأن نتعاون ويساعد بعضنا بعضاً على ذلك ونفوض الأمر فيما وراء كسبنا الى القادر على كل شيءٍ ونلجأ اليه وحده ونطلب المعونة المتممة للعمل والموصلة لثمرته منه سبحانه دون سِواه إذ لايقدر على ما وراء الاسباب الممنوحة لكل البشر على السواء إلاّ مسبب الاسباب ورب الارباب فقوله تعالى « وإياك نستعين » متمم لمعنى قوله « اياك نعبد » لان الاستعانة بهذا المعنى فزَع من القلب الى الله وتعلقٌ من النفس به وذلك من مخّ العبادة فاذا توجّه العبد بها الى غير الله تعالى كانت ضرباً من ضروب العبادة الوثنية التي كانت ذائعة فى زمن التنزيل وقبله وخُصت بالذكر لئلا يتوهم الجهلاء أن الاستعانة بمن اتخذوهم أولياء من دون الله واستعانو بهم فيما وراء الاسباب المكتسبة لعامة الناس هى كالاستعانة بسائر الناس فى الاسباب العامة فأراد الحق جل شأنه ان يرفع هذا

اللبس عن عباده ببيان ان الاستعانة فيما هو فى استطاعة الناس بالناس انما هي ضرب من استعمال الاسباب المسنونة وما منزلتها الا كمنزلة استعمال الآلات فيما هي آلات له بخلاف الاستعانة فى شؤن تفوت القُدر والقوى المعروفة فى متناول الفهم كالاستعانة على شفاء المرض بما وراء الدواء وعلى غلبة العدو بما وراء العِدة والعُدة فان ذلك مما لا يجوز الفزع به لغير الله تعالى صاحب السلطان الاعظم على ما لا يصل اليه سلطان احد من العالم

وضرب الاستاذ مثلاً الزارع يبذل جهده فى الحرث والعذق وتسميد الارض وريها ويستعين بالله تعالى على إتمام ذلك بمنع الآفات والجوائح السماوية أو الارضية ومثّل بالتاجر يحذق فى اختيار الاصناف ويمهر فى صناعة الترويج ثم يتكل على الله فيما بعد ذلك ثم قال ومن هنا تعلمون أن الذين يستعينون باصحاب الاضرحة والقبور على قضاء حوائجهم وتيسير أمورهم وشفاء أمراضهم ونماء حرثهم وزرعهم وهلاك أعدائهم وغير ذلك من المصالح عن صراط التوحيد ناكبون، وعن ذكر الله معرضون

أرشدتنا هذه الكلمة الوجيزة « واياك نستعين » الى

أمرين عظيمين هما معراج السعادة فى الدنيا والآخرة . أحدهما أن نعمل الأعمال النافعة ونجتهد فى إتقانها ما استطعنا لأن طلب المعونة لا يكون إلا على عمل بذل فيه المرء طاقته فلم يوفه حقه أو يخشى أن لا ينجح فيه فطلب المعونة على إتمامه وإكماله ومن وقع من يده القلم على المكتب لا يطلب المعونة من أحد على امساكه ومن وقع تحت عبء ثقيل يعجز عن النهوض به وحده يطلب المعونة من غيره على رفعه بعد استفراغ القوة فى الاستقلال به وهذا الأمر هو مرقاة السعادة الدنيوية وركن من اركان السعادة الاخروية . وثانيهما ما أفاده الحصر من وجوب تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك وهو روح الدين وكمال التوحيد الخالص الذى يرفع نفوس معتقديه ويخلصها من رق الاغيار ويفتك إرادتهم من أسر الرؤساء الروحانيين . والشيوخ الدجالين ، ويطلق عزائمهم من قيد المهيمنين الكاذبين . من الاحياء والميتين ، فيكون المؤمن مع الناس حراً خالصاً وسيداً كريماً . ومع الله عبداً خاضعاً « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما »

﴿ إِهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

ذكر الاستاذ أولا ماقالوه فى معنى الهداية لغة من أنها الدلالة بلطف على مايوصل الى المطلوب ثم بين أنواعها ومراتبها فقال ما مثاله . منح الله تعالى الانسان أربع هدايات يتوصل بها الى سعادته (اولاها) هداية الوجدان الطبيعي والإلهام الفطريّ وتكون للاطفال منذ ولادتهم فان الطفل بعد مايولد يشعر بألم الحاجة الى الغذاء فيصرخ طالباً له بفطرته وعند مايصل الثدي الى فيه يلهم التقامه وامتصاصه (الثانية) هداية الحواس والمشاعر وهى متممة للهداية الاولى فى الحياة الحيوانية ويشارك الانسان فيهما الحيوان الاعجم بل هو فيهما أكمل من الانسان فان حواس الحيوان وإلهامه يكملان له بعد ولادته بقليل بخلاف الانسان فان ذلك يكمل فيه بالتدريج فى زمن غير قصير ألا تراه عقيب الولادة لاتظهر عليه علامات ادراك الاصوات والمرئيات ثم بعد مدة يبصر ولكنه لقصر نظره يجهل تحديد المسافات فيحسب البعيد قريباً فيمد يديه اليه ليتناوله وإن كان قمر السماء ولا يزال يغلط حسه حتى فى طور الكمال

(الثالثة) هداية العقل . خلق الانسان ليعيش مجتمعاً ولم

يعط من الالهام والوجدان مايكفي مع الحس الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية كما أعطي النحل والنمل فان الله قد منحها من الالهام ما يكفيها لان تعيش مجتمعة يؤدي كل واحد منها وظيفة العمل لجميعها ويؤدي الجميع وظيفة العمل للواحد وبذلك قامت حياة أنواعها كما هو مشاهد

أما الانسان فلم يكن من خاصة نوعه أن يتوفر له مثل ذلك الالهام فحباه الله هداية هي أعلى من هداية الحس والالهام وهى العقل الذى يصحح غلط الحواس والمشاعر ويبين أسبابه وذلك أن البصر يرى الكبير على البعد صغيراً ويرى العود المستقيم فى الماء معوجاً والصفراوي يذوق الحلو مرًّا والعقل هو الذى يحكم بفساد هذا الادراك

(الهداية الرابعة الدين) يغلط العقل فى إدراكه كما تغلط الحواس وقد يهمل الانسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعادته الشخصية والنوعية ويسلك بهذه الهدايات مسالك الضلال فيجعلها مسخرة لشهواته ولذاته حتى توردَه موارد الهلكة . فاذا وقعت المشاعر فى مزالق الزلل ، واسترقت الحظوظ والاهواء العقلَ فصار يستنبط لها ضروب الحيل ،

فكيف يتسنَّى للانسان مع ذلك أن يعيش سعيداً ؟ . وهذه الحظوظ والأهواء ليس لها حد يقف الانسان عنده وماهو بعائش وحده وكثيراً ما تتطاول به الى ما في يد غيره فهي لهذا تقتضي أن يعدو بعض أفراده على بعض فيتنازعون ويتدافعون ويتجادلون ويتجالدون ويتواثبون ويتناهبون حتى يفني بعضهم بعضاً ولا تغني عنهم تلك الهدايات شيئاً فاحتاجوا الى هداية ترشدهم فى ظلمات أهوائهم اذا غلبت على عقولهم وتبين لهم حدود أعمالهم ليقفوا عندها ويكفّوا أيديهم عما وراءها. ثم إن مما أودع فى غرائز الانسان الشعورَ بسلطة غيبيَّة متسلِّطة على الأكوان ينسب اليها كل ما لا يعرف له سبباً لأنها هي الواهبة كل موجود ما به قوام وجوده وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة فهل يستطيع أن يصل بتلك الهدايات الثلاث الى تحديد ما يجب عليه لصاحب تلك السلطة الذى خلقه وسوّاه ووهبه هذه الهدايات وغيرها وما فيه سعادته فى تلك الحياة الثانية . كلا إنه فى أشد الحاجة الى هذه الهداية الرابعة — الدين — وقد منحه الله تعالى إياها

أشار القرآن الى أنواع الهداية التى وهبها الله تعالى للانسان

فى آيات كثيرة منها قوله تعالى «وهديناه النّجدين» أى طريقي السعادة والشقاوة والخير والشر . قال الاستاذ : وهذه تشمل هداية الحواس الظاهرة والباطنة وهداية العقل وهداية الدين. ومنها قوله تعالى « وأما ثمود فهديناهم فاستحبُّوا العمى على الهدى »أي دللناهم على طريقى الخير والشر فسلكوا سبل الشر المعبر عنه بالعمى . وذكر غير هاتين الآيتين مما فى معناها ثم قال

ولكن بقي معنا هداية أخرى وهي المعبر عنها بقوله تعالى « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » فليس المراد من هذه الهداية ما سبق ذكره فالهداية فى الآيات السابقة بمعنى الدلالة وهى بمنزلة إيقاف الأنسان على رأس الطريقين المهلك والمنجي مع بيان ما يؤدي اليه كلٌّ منهما وهي مما تفضَّل الله به على جميع أفراد البشر أما هذه الهداية فهى أخص من تلك والمراد بها إعانتهم وتوفيقهم للسير في طريق الخير والنجاة مع الدلالة وهى لم تكن ممنوحة لكل أحد كالحواس والعقول وشرع الدين [1]

(١) هذا الفرق بين معنيي الهداية معروف في اللغة وبه يجاب عن

ولما كان الانسان عرضة للخطأ والضلال فى فهم الدين وفى استعمال الحواس والعقل على ما قدمنا كان محتاجاً الى المعونة الخاصة فأمرنا الله بطلبها منه فى قوله « إِهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ » فمعنى (اهدنا الصراط المستقيم) دلنا دلالة تصحبها معونة غيبية من لدنك تحفظنا بها من الضلال والخطأ . وما كان هذا أوّل دعاء علّمنا الله تعالى إياه الا لأن حاجتنا إليه أشد من حاجتنا الى كل شيء سواه

ثم بيَّن معنى الصراط (وهو الطريق) واشتقاقه وقراءة السراط بالسين المهملة واشتقاقها على نحو ما في كتب اللغة والتفسير ومعنى المستقيم وهو ضدّ المعوجّ وقال : ليس المراد بمقابل المستقيم المعوج ذا التمعُّج والتعاريج بل المراد كل ما فيه انحراف عن الغاية التي يجب أن ينتهى اليها . والمستقيم فى عرف

التناقض الظاهري في قوله تعالى (وانك لتهدي الى صراط مستقيم) وقوله تعالى (انك لاتهـدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وقوله تعالى (ليس عليـك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) فالهداية التي أثبتها للنبي صلى الله عليه وسلم هي الدلالة على الخير والحق والتي نفاها عنه هى الثانية التى بمعني الاعانة والتوفيق

الهندسة أقرب موصّل بين طرفين وهذا المعنى لازم للمعنى اللغوي كما هو ظاهر بالبداهة وانما قلنا إن المراد بمقابل المستقيم كل ما فيه انحراف لأن كل من يميل وينحرف عن الجادة يكون أضل عن الغاية ممن يسير عليها فى خطٍ ذي تعاريج لأن هذا الأخير قد يصل الى الغاية بعد زمن طويل ولكن الأول لايصل اليها قط بل يزداد بعداً كلما أوغل فى السير وانهمك فيه

وقد قالوا إن المراد بالصراط المستقيم الدين أو الحق أو العدل والحدود ونحن نقول إنه جملة ما يوصلنا الى سعادتي الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم . لِمَ سُمّي الموصل الى السعادة من ذلك صراطاً وطريقاً ؟ خذ الحق مثلاً وهو الاعتقاد الصحيح بالله وبالنبوة وبأحوال الكون والناس ترَ معنى الصراط فيه واضحاً لأن السبيل أو الصراط هو ما أسلكه وأسير فيه لبلوغ الغاية التي أقصدها . كذلك الحق الذى يبيّن لي الواقع فى العقيدة الصحيحة هو كالجادّة بين السبل المتفرقة المضلّة فالطريق الواضح للحس ، يشبهه الحق للعقل والنفس ، سير حسي . وسير معنوي . كذلك اذا اعتبرت

المعنى فى الحدود والأحكام تجده واضحاً — قُسِّمت أحكام الأعمال الى واجب ومندوب ومباح ومحرم ومكروه فكان هذا مريحاً لنا من تمييز الخير من الشر بأنفسنا واجتهادنا فبيان الاحكام بالهداية الكبرى وهى الدين كالطريق الواضح يُسلك بالعمل . ومع هذا تجد الشهوات تتلاعب بالأحكام وترجعها الى أهوائها كما يصرف السفهاء عقولهم وحواسهم فيما يرديهم وهذا التلاعب بالدين إنما يصدر من علمائه . وضرب لذلك مثلاً أحدالشيوخ المتفقِّهين سرق كتاباً من وقف أحدالاروقة فى الأزهر مستحلاً له بحجة أن قصد الواقف الانتفاع به وهو يحصل بوجود الكتاب عنده وقد يفوت النفع ببقائه فى الرواق حيث وضعه الواقف . واستحلال المحرمات بمثل هذا التأويل ليس بقليل ولذلك كان الانسان محتاجاً أشد الاحتياج الى العناية الالهية الخاصَّة لأجل الاستقامة والسير في تلك الهدايات الأربع سيراً مستقيما يوصل الى السعادة لهذا نبَّهنا الله جل شأنه الى أن نلجأ اليه ونسأله الهداية ليكون عوناً لنا ينصرنا على أهوائنا وشهواتنا وأن تكون استعانتنا فى ذلك به لا بسواه بعد ان نبذل ما نستطيع من الفكر والجهاد فى معرفة ما أَنزل

الينا من الشريعة والأحكام وَأَخْذِ أنفسنا بما نعلم من ذلك .
وهذا أَفضل ما نطلب فيه المعونة منه جل شأنه لاشتماله على خيري الدنيا والآخرة فهو بهذه الآية يعلمنا كيف نستعين بعد أن علَّمنا اختصاصه بالاستعانة فى قوله واياك نستعين

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾
(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

الصراط المستقيم هو الموصل الى الحق ولكنه ما بينه بذلك كما بيّنه فى نحو سورة العصر (وتلا الاستاذ السورة وتكلم عليها كلاماً موجزاً) وإنما بينه بإِضافته الى من سلك هذا الصراط كما قال « فبهداهم اقتده » وقد قلنا إن الفاتحة مشتملة على إجمال ما فُصِّل فى القرآن حتى من الأخبار التى هي مُثُل الذّكرى والاعتبار ، وينبوع العظة والاستبصار ، وأخبار القرآن كلها تنطوي في إجمال هذه الآية

فسّر بعضهم المنعم عليهم بالمسلمين والمغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى . ونحن نقول إن الفاتحة أول سورة نزلت كما قال الأمام علي رضى الله عنه وهو أعلم بهذا من غيره لأنه تربى فى حجر النبي صلى الله عليه وسلم وأول من آمن به وان لم

تكن أول سورة على الأطلاق فلا خلاف فى أنها من أوائل السور (كما مرَّ فى المقدمة) ولم يكن المسلمون فى أول نزول الوحي بحيث يطلب الاهتداء بهداهم وماهداهم الا من الوحي ثم هم المأمورون بأن يسألوا الله أن يهديهم هذا السبيل سبيل من أنعم الله عليهم فاولئك غيرهم وانما المراد بهذا ماجاء فى قوله تعالى « فبهداهم اقتده » وهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين من الأمم السالفة . فقد أحال على معلوم أجمله فى الفاتحة وفصّله فى سائر القرآن بقدر الحاجة فثلاثة أرباع القرآن تقريباً قصص وتوجيه للأنظار الى الاعتبار بأحوال الأمم فى كفرهم وايمانهم وشقاوتهم وسعادتهم ولا شئ يهدي الأنسان كالمثلات والوقائع فاذا امتثلنا الامر والارشاد ونظرنا فى أحوال الأمم السالفة وأسباب علمهم وجهلهم وقوتهم وضعفهم وعزهم وذلهم وغير ذلك مما يعرض للأمم كان لهذا النظر أثر فى نفوسنا يحملنا على حسن الاسوة والاقتداء بأخيار تلك الأمم فيما كان سبب السعادة والتمكن فى الارض واجتناب ما كان سبب الشقاوة أوالهلاك والدمار . ومن هنا يتجلي للعاقل شأن علم التاريخ وما فيه من الفوائد

والثمرات وتأخذه الدهشة والحيرة اذا سمع أنّ كثيراً من رجال الدين من أمة هذا كتابها يعادون التاريخ باسم الدين ويرغبون عنه ويقولون إنه لاحاجة اليه ولافائدة له . وكيف لايدهش ويحار والقرآن ينادي بأنّ معرفة أحوال الأمم من أهمّ مايدعو اليه هذا الدين « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ »

وههنا سؤال وهو كيف يأمرنا الله تعالى باتباع صراط من تقدمنا وعندنا أحكام وارشادات لم تكن عندهم وبذلك كانت شريعتنا أكمل من شرائعهم وأصلح لزماننا ومابعده؟ والقرآن يبيّن لنا الجواب وهو أنه يصرح بانّ دين الله فى جميع الامم واحد وانما تختلف الاحكام بالفروع التي تختلف باختلاف الزمان وأما الاصول فلا خلاف فيها . قال تعالى « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » الآية وقال تعالى « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ » الآية . فالاعتقاد بالله وبالنّبوة وبترك الشرّ وبعمل البرّ والتخلق بالاخلاق الفاضلة مستوٍ فى الجميع وقد أمرنا الله بالنظر فيما كانوا عليه والاعتبار بما صاروا اليه فنقتدي بهم فى القيام على أصول الخير وهو أمر

يتضمن الدليل على أن فى ذلك الخير والسعادة على حسب طريقة القرآن في قرن الدليل بالمدلول والعلة بالمعلول والجمع بين السبب والمسبب . وتفصيل الاحكام التي هذه كلياتها بالاجمال نعرفه من شرعنا ونبينا عليه الصلاة والسلام

وأما قوله تعالى « غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ » فالمغضوب عليهم هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به والذين بلغهم شرع الله تعالى ودينه فرفضوه ولم يتقبلوه انصرافا عن الدليل، ورضىً بما ورثوه من القيل، ووقوفاً عند التقليد، وعكوفاً على هَوَىً غير رشيد، وغضب الله عقوبته وانتقامه . وقوله « وَلَا ٱلضَّآلِّينَ » قرن المعطوف فيه بلا لما فى (غير) من معنى النفي أي وغير الضالين ففيه تأكيد للنفي . وهو يدل على أن الطوائف ثلاث المنعم عليهم والمغضوب عليهم والضالون ولا شك أن المغضوب عليهم ضالون أيضاً لانهم بنبذهم الحق وراء ظهورهم قد استدبروا الغاية واستقبلوا غير وجهتها فلا يصلون الى مطلوب، ولا يهتدون الى مرغوب، ولكن فرقا بين من عرف الحق فاعرض عنه على علم وبين من لم يظهر له الحق فهو تائه بين الطرق لا يهتدي الى الجادة فيها وهم من لم

تبلغهم الرسالة أو بلغتهم على وجه لم يتبين لهم فيه الحق فهؤلاء هم أحق باسم الضالين فان الضال حقيقة هو التائه الواقع فى عماية لايهتدي معها الى المطلوب والعماية فى الدين هى الشبهات التى تلبس الحق بالباطل وتشبه الصواب بالخطأ

والضالون على أقسام (الاول) من لم تبلغهم الدعوة الى الرسالة أو بلغتهم على وجه لايسوق الى النظر فهؤلاء لم يتوفر لهم من أنواع الهداية سوى مايحصل بالحس والعقل وحرموا رشد الدين فان لم يضلوا فى شؤونهم الدنيوية ضلوا لامحالة فيما تطلب به نجاة الارواح وسعادتها فى الحياة الاخرى على أن من شأن الدين الصحيح أن يفيض على أهله من روح الحياة مابه يسعدون فى الدنيا والآخرة معاً فمن حرم الدين حرم السعادتين وظهر أثر التخبط والاضطراب فى أعماله المعاشية وحلّ به من الرّزايا مايتبع الضلال والخبط عادةً سنّة الله فى هذا العالم ولن تجد لسنته تبديلا . أما أمرهم فى الآخرة فعلى أنهم لن يساووا المهتدين فى منازلهم وقد يعفو الله عنهم وهو الفعّال لما يريد

(القسم الثانى) من بلغته الدعوة على وجه يبعث على النظر فساق همته اليه واستفرغ جهده فيه ولكن لم يوفق الى

الاعتقاد بما دعي اليه وانقضى عمره وهو فى الطلب وهذا القسم
لا يكون الا أفراداً متفرقة في الأمم ولا يعم حاله شعباً من
الشعوب فلا يظهر له أثر فى أحوالها العامة وما يكون لها من
سعادة وشقاء فى حياتهم الدنيا أما صاحب هذه الحالة فقد ذهب
بعض الاشاعرة الى أنه ممن ترجى له رحمة الله تعالى وينقل
صاحب هذا الرأى مثله عن أبي الحسن الاشعري وعلى رأي
الجمهور فلا ريب أن مؤاخذته أخف من مؤاخذة الجاحد الذى
استعصى على الدليل وكفر بنعمة العقل ورضي بحظه من الجهل

(القسم الثالث) من بلغتهم الرسالة وصدقوا بها بدون
نظر فى أدِلّتها ولا وقوف على أصولها فاتبعوا أهواءهم فى فهم
ما جاءت به فى أصول العقائد وهؤلاء هم المبتدعة فى كل دين
ومنهم المبتدعون فى دين الاسلام وهم المنحرفون فى اعتقادهم
عما تدلّ عليه جملة القرآن وما كان عليه السلف الصالح وأهل
الصدر الاول ففرقوا الامة الى مشارب يغص بمائها الوارد
ولا يرتوي منها الشارب وإنى أشير الى طرف من آثارهم فى
الناس . يأتى الرجل الى دوائر القضاء فيستحلف بالله العلي
العظيم أو بالمصحف الكريم وهو كلام الله القديم أنه ما فعل

كذا فيحلف وعلامة الكذب بادية على وجهه فيأتيه المستحلف من طريق آخر ويحمله على الحلف بشيخ من المشائخ الذين يعتقد بهم فيتغير لونه وتضطرب أركانه ثم يرجع فى أليته ويقول الحق ويقر بأنه فعل ماحلف عليه أولا أنه لم يفعله تكريما لاسم ذلك الشيخ وخوفاً منه أن يسلب عنه نعمة أو يحل به نقمة إذا حلف باسمه كاذبا (ثم ذكر الاستاذ وقائع كثيرة من ذلك) فهذا ضلال فى أصول العقيدة يرجع الى الضلال فى الاعتقاد بالله وما يجب له من الوحدانية في الافعال ولو أردنا أن نسرد ما وقع فيه المسلمون من الضلال فى العقائد الاصلية بسبب البدع التى عرضت على دين الاسلام لطال المقال واحتيج الى وضع مجلدات فى وجوه الضلال

ومن أشنعها أثراً وأشدها ضرراً خوض رؤساء الفرق منهم فى مسائل القضاء والقدر والاختيار والجبر وتحقيق الوعد والوعيد وتهوين مخالفة الله على نفوس العبيد

إذا وزنا مافي أدمغتنا من الاعتقادات بكتاب الله تعالى من غير أن ندخلها فيه أولا يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين. وأما اذا أدخلنا مافي أدمغتنافي القرآن وحشرناها فيه أوّلاً

فلا يمكننا أن نعرف الهداية من الضلال لاختلاط الموزون بالميزان فلا يدرى ماهو الموزون من الموزون به . أريد أنه يجب أن يكون القرآن أصلا تحمل عليه المذاهب والآراء فى الدين لا أن تكون المذاهب أصلا والقرآن هو الذى يحمل عليها ويرجع بالتأويل أو التحريف اليها . كما جرى عليه المخذولون وتاه فيه الضالون

(القسم الرابع) ضلال فى الاعمال وتحريف للاحكام عما وضعت له كالخطأ فى فهم معنى الصلاة والصيام وجميع العبادات والخطأ في فهم الاحكام التى جاءت في المعاملات وانضرب لذلك مثلا الاحتيال في الزكاة بتحويل المال الى ملك الغير قبل حلول الحول ثم استرداده بعد مضىّ قليل من الحول الثاني حتى لاتجب الزكاة فيه وظنّ المحتال أنه بحيلته قد خلص من أداء الفريضة ونجا من غضب من لاتخفى عليه خافية ولا يعلم أنه بذلك قد هدم ركنا من أهم أركان دينه وجاء بعمل من يعتقد أن الله قد فرض فرضاً وشرع بجانب ذلك الفرض مايذهب به ويمحو أثره وهو محال عليه جل شأنه — ثلاثة أقسام من هذا الضلال اولها وثالثها ورابعها يظهر أثرها فى الامم فتختلّ

قوى الادراك فيها وتفسد الأخلاق وتضطرب الاعمال ويحل بها الشقاء عقوبة من الله لا بد من نزولها بهم سنة الله في خلقه ولن تجد لسنته تحويلا . ويعدّ حلول الضعف ونزول البلاء بامة من الامم من العلامات والدلائل على غضب الله تعالى عليها لما أحدثته في عقائدها وأعمالها مما يخالف سُنَنه ولا يتبع فيه سَنَنَه . لهذا علمنا الله تعالى كيف ندعوه بان يهدينا طريق الذين ظهرت نعمته عليهم بالوقوف عند حدوده وتقويم العقول والاعمال بفهم ماهدانا اليه وأن يجنّبنا طرق اولئك الذين ظهرت فيهم آثار نقمه بالانحراف عن شرائعه سواء كان ذلك عمداً وعناداً أو غواية وضلالا

واعلموا أن الامة اذا ضلّت سبيل الحق ولعب الباطل باهوائها ففسدت أخلاقها واعتلت اعمالها وقعت في الشقاء لامحالة وسلط الله عليها من يستذلها ويستأثر بشؤنها ولا يؤخر لها العذاب الى يوم الحساب وان كانت ستلاقي نصيبها منه أيضاً فاذا تمادى بها الغيّ وصل بها الى الهلاك ومحي أثرها من الوجود لهذا علَّمنا الله تعالى كيف ننظر في أحوال من سبقنا ومن بقيت آثارهم بين أيدينا من الامم لنعتبر ونميز بين مابه تسعد الاقوام

وما به تشقى . أما فى الافراد فلم تجر سنّة الله بلزوم العقوبة لكل ضال في هذه الحياة الدنيا فقد يستدرج الضالُّ من حيث لا يعلم ويدركه الموت قبل أن تزول النعمة عنه وانما يلقى جزاءه « يوم لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً والامرُ يومئذٍ لله »

المقالة الأولى

﴿ فى افعال العباد ونسبتها تارة اليهم وتارة الى الله تعالى ﴾

نشرنا هذه المقالة في الجزء السابع من المجلد الثالث من مجلة المنار (ص ١٥٧) تحت عنوان «سؤال وجواب عن آيتين من الكتاب»

رفع سؤال الى مولانا حجة الاسلام وقدوة الأنام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية يطلب صاحبه فيه بيان الجمع بين قوله تعالى « وَإِنْ تُصِبهم حسنةٌ يقولوا هذه من عنْدِ الله وَإِنْ تُصبهم سيّئةٌ يقولوا هذه من عندكَ قلْ كلٌّ من عندِ الله فما لهؤلاءِ القومِ لا يكادُون يفقهونَ حديثاً » وقوله تعالى عقيبها « مَا أَصابَكَ من حَسَنَةٍ فمنَ الله وَما أصابكَ من سيّئةٍ فمن نفسكَ وَارسلناكَ للناس رَسولاً وكفى باللهِ شهيدًا » فان بينهما في

بادئ لرأي منافياً ينزّه عنه كلام الله تعالى فأجاب حفظه الله تعالى بقوله

كان بعض القوم بطرًا جاهلا إذا أصابه خير ونعمة يقول إن الله تعالى قد أكرمه بما أَعطاه من ذلك وأصدره من لدنه وساقه اليه من خزائن فضله عناية منه به لعلو منزلته واذا وصل اليه شر وهو المراد من السيئة يزعم أن منبع هذا الشر هو النبي صلى الله عليه وسلم وأن شؤم وجوده هو ينبوع هذه السيئآت والشرور . فهؤلاء الجاهلون الذين كانوا يرون الخير والشر والحسنة والسيئة يتناوبانهم قبل ظهور النبي وبعده كانوا يفرقون بينهما فى السبب الاول لكل منهما فينسبون الخير أو الحسنة الى الله تعالى على أنه مصدرها الاول ومعطيها الحقيقي يشيرون بذلك الى أنه لا يد للنبي فيه وينسبون الشرّ أو السيئة الى النبي على أنه مصدرها الأول ومنبعها الحقيقي كذلك وأن شؤمه هو الذى رماهم بها وهذا هو معنى « من عند الله » أو « من عندك » أي من لدنه ومن خزائن عطائه ومن لدنك ومن رزاياك التي ترمي بها الناس . فرد الله عليهم هذه المزاعم بقوله « قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ » أي أن السبب الاول وواضع أسباب

الخير والشر المنعم بالنعم والرامي بالنقم انما هو الله وحده وليس ليمن ولا الشؤم مدخل فى ذلك فهو بيان للفاعل الاول الذى يرد اليه الفعل فيما لا تتناوله قدرة البشر ولا يقع عليه كسبهم وهو الذي كان يعنيه أولئك المشاقّون عند مايقولون الحسنة من الله والسيئة من محمد أي انه لا دخل لاختيارهم فى الاولى ولا في الثانية وأن الاولى من عناية الله بهم والثانية من شؤم محمد عليهم فجاءت الآية ترميهم بالجهل فيما زعموا ولو عقلوا لعلموا ان ليس لاحد فيما وراء الاسباب المعروفة فعلٌ الخير والشر فى ذلك سواء

هذا فيما يتعلق بمن بيده الامر الاعلى فى الخير والشر والنعم والنقم أما مايتعلق بسنة الله فى طريق كسب الخير والتوقي من الشر والتمسك بأسباب ذلك فالأمر على خلاف مايزعمون كذلك فان الله سبحانه وتعالى قد وهبنا من العقل والقوى ما يكفينا في توفير أسباب سعادتنا والبعد عن مساقط الشقاء فاذا نحن استعملنا تلك المواهب فيما وهبت لاجله وصرفنا حواسنا وعقولنا فى الوجوه التى ننال منها الخير وذلك انما يكون بتصحيح الفكر وإخضاع جميع قوانا لاحكامه وفهم شرائع الله حق الفهم والتزام ماحدده فيها فلا ريب فى أننا ننال الخير والسعادة

ونبعد عن الشقاء والتعاسة وهذه النعم إنما يكون مصدرها تلك المواهب الآلهية فهي من الله تعالى فما أصابك من حسنة فمن الله لان قواك التي كسبت بها الخير واستغزرت بها الحسنات بل واستعمالك لتلك القوى إنما هو من الله لانك لم تأت بشيء سوى استعمال ما وهب الله فاتصال الحسنة بالله ظاهر ولا يفصلها عنه فاصل لا ظاهر ولا باطن . وأما اذا أسأنا التصرف فى أعمالنا وفرطنا فى النظر فى شؤوننا وأهملنا العقل وانصرفنا عن سر ما أودع الله فى شرائعه وغفلنا عن فهمه فاتبعنا الهوى فى أفعالنا وجلبنا بذلك الشر على أنفسنا كان ما أصابنا من ذلك صادراً عن سوء اختيارنا وإن كان الله تعالى هو الذى يسوقه الينا جزاء على ما فرطنا ولا يجوز لنا أن ننسب ذلك الى شؤم أحد أو تصرفه . ونسبة الشر والسيئآت الينا فى هذه الحالة ظاهرة الصحة فاما المواهب الالهية بطبيعتها فهي متصلة بالخير والحسنات وانما يعطل أثرها إهمالها أو سوء استعمالها وعن كلا الامرين يساق الشر الى أهله وهما من كسب المهملين وسيىء الاستعمال فحق ان ينسب اليهم ما أصيبوا به وهم الكاسبون لسببه فقد حالوا بكسبهم بين القوى التي غرزها الله فيهم لتؤدي الى الخير والسعادة وبين ما حقها

أن تؤدي اليه من ذلك وبعدوا بها عن حكمة الله فيها وصاروا بها الى ضد ما خلقت لاجله فكل ما يحدث بسبب هذا الكسب الجديد فأجدر به الاّ ينسب الى كاسبه

وحاصل الكلام فى المقامين أنه اذا نظر الى السبب الاوّل ألذى يعطي ويمنع ويمنح ويسلب وينعم وينتقم فذلك هو الله وحده ولا يجوز أن يقال إن سواه يقدر على ذلك ومن زعم غير هذا فهو لا يكاد يفقه كلاماً الاّ ان نسبة الخير الى الله ونسبة الشر الى شخص من الاشخاص بهذا المعنى مما لا يكاد يعقل فان الذى يأتي بالخير ويقدر على سوقه هو الذى يأتي بالشر ويقدر عليه فالتفريق ضرب من الخبل فى العقل

واذا نظرنا الى الأسباب المسنونة التي دعا الله الخلق الى استعمالها ليكونوا سعداء ولا يكونوا أشقياء فمن أصابته نعمة بحسن استعماله لما وهب الله فذلك من فضل الله لانه أحسن استعماله الآلات التي منّ الله عليه بها فعليه أن يحمد الله ويشكره على ما آتاه ومن فرّط أو أفرط في استعمال شيء من ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه فهو الذي أساء اليها بسوء استعماله مالديه من المواهب وليس بسائغ له أن ينسب شيئاً من ذلك

الى النبي ولا الى غيره فان النبي أو سواه لم يغلبه على اختياره ولم يقهره على اتيان ما كان سبباً فى الانتقام منه

فلو عقل هؤلاء القوم لحمدوا الله وحمدوك (يامحمد) على ماينالون من خير فان الله هو مانحهم ماوصلوا به الى الخير وأنت داعيهم لالتزام شرائع الله وفى التزامها سعادتهم . ثم إذا أصابهم شرّ كان عليهم أن يرجعوا باللائمة على أنفسهم لتقصيرهم فى أعمالهم أو خروجهم عن حدود الله فعند ذلك يعلمون أن الله قد انتقم منهم للتقصير أو العصيان فيؤدبون أنفسهم ليخرجوا من نقمته الى نعمته لأن الكل من عنده وإنما ينعم على من أحسن الاختيار ويسلب نعمته عمن أساءه

وقد تضافرت الآثار على أن طاعة الله من أسباب النعم وأن عصيانه من مجالب النقم وطاعة الله انما تكون باتباع سننه وصرف ما وهب من الوسائل فيما وُهب لأجله

ولهذا النوع من التعبير نظائر فى عرف التخاطب فانك لو كنت فقيراً وأعطاك والدك مثلا رأس مال فاشتغلت بتنميته والاستفادة منه مع حسنٍ فى التصرف وقصدٍ فى الإنفاق وصرت بذلك غنيا فانه يحق لك أن تقول ان غناك

انما كان من ذلك الذي أعطاك رأس المال وأعدك به للغنى . أما لو أسأت التصرف فيه وأخذت تنفق منه فيما لا يرضاه واطلع على ذلك منك فاسترد ما بقي منه وحرمك نعمة التمتع به فلا ريب أن يقال ان سبب ذلك انما هو نفسك وسوء اختيارها مع أن المعطي والمسترد فى الحالين واحد وهو والدك غير أن الامر ينسب الى مصدره الأول اذا انتهى على حسب مايريد وينسب الى السبب القريب اذا جاء على غير مايحب لأن تحويل الوسائل عن الطريق التي كان ينبغى أن تجري فيها الى مقاصدها انما ينسب الى من حولها وعدل بها عما كان يجب أن تسير اليه

وهناك للآية معنى أدق . يشعر به ذو وجدان أرق . مما يجده الغافلون من سائر الخلق . وهو أن ما وجدت من فرح ومسرة وما تمتعت به من لذة حسية أو عقلية فهو الخير الذي ساقه الله اليك واختاره لك وما خلقت الا لتكون سعيداً بما وهبك . أمَّا ما تجده من حزن وكدر فهو من نفسك . ولو نفذت بصيرتك الى سر الحكمة فيما سيق اليك لفرحت بالحزن فرحك بالسارِّ وانما أنت بقِصر نظرك تحب أن تختار

ما لم يختره لك العليم بك المدبّر لشأنك ولو نظرت الى العالم نظرة من يعرفه حق المعرفة وأخذته كما هو وعلى ماهو عليه لكانت المصائب لديك بمنزلة التوابل الحرّيفة (١) يضيفها طاهيك (٢) على ما يهيئ لك من طعام لتزيده حسن طعم وتشحذ منك الاشتهاء لاستيفاء اللذة واستحسنت بذلك كل مااختاره الله لك ولا يمنعك ذلك من التزام حدوده والتعرض لنعمه والتحوّل عن مصابّ نقمه فان اللذة التي تجدها فى النقمة انما هي لذة التأديب . ومتاع التعليم والتهذيب . وهو متاع تجتنى فائدته . ولا تلتزم طريقته . فكما يسرّ طالب الآداب أن يحمل المشقة في تحصيله وأن يلذّ بما يلاقيه من تعب فيه يسرّه كذلك أن يرتقي فوق ذلك المقام الى مستوىً يجد نفسه فيه متمتعاً بما حصّل . بالغاً ما أمّل . وفى هذا كفاية لمن يريد أن يكتفي اه

---

(١) هي مايطيب به الطعام كالفلفل واحدها تابل

(٢) الطاهي الطباخ

المقالة الثانية

﴿ مسئلة الغرانيق • وتفسير الآيات ﴾

(نشرت فى العدد الثالث من مجلة المنار للسنة الرابعة)

تمهيد • مصارعة الحق والباطل • رفع الاسلام مقام الانبياء وحكمه بعصمتهم • عيث عشاق الروايات وافسادهم فى الدين • الروايات واختلافها فى مسئلة الغرانيق • مخالفة المحققين لها • الرجوع الى اهل العلم الصحيح في ازالة الحيرة • الطعن في رواية تفسير التمني بالقراءة • الطعن فى حديث الغرانيق رواية • الطعن فيه دراية • عصمة الانبياء • الوجوه الدالة على بطلان حديث الغرانيق • تفسير الآيات على الوجه الموافق لأسلوب القرآن المنطبق على العقائد الصحيحة • السياق وسابق الآيات • التفسير الاول وفيه المقابلة بين الآيات وآيات سورة آل عمران فى المحكمات والمتشابهات • التفسير الثاني • اماني الانبياء • سنة الله فيهم وفي أقوامهم • تأويل ثالث • وسواس الشيطان • اللغات في الغرنوق ومعانيه • عدم ملائمة معانيه لوصف الآلهة • انتفاء نقل ذلك عن العرب • الجزم بان الحديث من وضع الاعاجم •

حديث الغرانيق صار مشهوراً عند المتاخرين لوجوده فى كثير من كتب التفسير التي تتناولها الايدي ولو صح لكان

أكبر شبهة على الدين ولكن المقلد البحت الذى لا نظر له لا يبالي بالشبه ويقبل كل نقل ، وان كان الفرع فيه ينفي الاصل ؛ وطلاب العَنَت يتشبثون بأهداب الشُّبه فيجعلونها معاول تهدم الاركان الثابتة ، وتنفي القضايا المبرهنة . ولذلك كثر الطعن فى هذه الايام ، بدين الاسلام ، من دعاة النصرانية ، وبعض المفتونين بالشبه المادية ، واقوى تُكَأَة لهؤلاء الطاعنين ماقاله بعض المفسرين فى مسئلة زيد وزينب وفى مسئلة الغرانيق ومسئلة أخرى . ولما كان كشف الشبهات وتخليص الحق من شوائب الباطل على وجه تثق به النفوس ، وتطمئن اليه القلوب ، من وظائف أئمة الدين ، وأكابر العلماء الراسخين ؛ لجأ قوم الى حكيم الاسلام فى هذا العصر ، وامام المسلمين فى كل بادية ومصر ، مولانا الاستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، فى أن يجلّي لهم الحق فى المسئلة الاولى فاجاب ؛ بما هو الحكمة وفصل الخطاب ، ونشرناه فى المنار ، ليشتهر فى الاقطار ، ثم سأله آخرون فى هذه الايام عن الثانيه . فاجاب بما أزال الالتباس ، ومحّص ما فى صدور الناس ؛ جعل المسئلة أوّلاً موضوع درس فى الازهر حضره الجماهير والجم الغفير ثم

كتبها لتنشر فى المنار ، وتتناقل فى الامصار . وهاك ماجاء من فضيلته ، بنصه وعبارته :

« وما أرسلنا منْ قبلكَ منْ رسولٍ ولا نبيٍّ الا اذا تمنَّى ألقى الشيطان في أُمنيَّته فينسخُ الله مايلقي الشيطان ثم يُحكم الله آياتهِ والله عليمٌ حكيم . ليَجعلَ مايُلقي الشيطانُ فتنةً للّذِين في قلوبهم مرضٌ والقاسيةِ قلوبُهم وإنَّ الظالمين لفي شقاق بعيد . وليَعْلَمَ الذين أُوتوا العلمَ أنه الحقُّ منْ ربك فيؤمنوا به فتُخبتَ له قلوبُهم وإنّ الله لَهادِي الذين آمنوا الى صراطٍ مستقيم . ولايزال الذين كفروا فى مِرْيَةٍ منه حتى تأتيَهم الساعة بَغتَةً أويأتيَهم عذاب يوم عقيم »

قديجد الباطل انصاراً . فيتبوأ من نفوسهم داراً . ويتخذ له منها قراراً . وتذهب على ذلك الايام بعد الايام . وتمضي عليه الاعوام إثر الاعوام . وهو يلعب بأهله . ويغلب أهواءهم بحيله . حتى يقصروا نظرهم عليه . ولايجدوا ملجأً منه الا اليه . فاذا أُوتوا من ناحيته رضوا . واذا عرض لهم الحق أعرضوا . ولا يزالون كذلك الا أن تحل به عُراهم . وتفسد

بهلله تواهم . والحق لايزال يعرض نفسه . يستخدم مرّة لينه وأخرى بأسه . وهو الشاب الذى لايهرم . والعامل الصبور الذى لايسأم . وانما يُعرِض بوجهه عن الاغبياء . ويُولّي ظهره الاشقياء . ثم لاينفك يرحمهم . ولا يبرح يتعهدهم . يسفر عليهم محياه . ويرسل اليهم اشعة من سناه . فاذا وافاهم وقد وهنت مُنَنُهم .⁽¹⁾ ومَرِهت عيونهم .⁽²⁾ وحلك ليلهم . واشتد خبلهم . صاح بهم منه صائح . ورَمحهم من جنده رامح .⁽³⁾ فقلق بالباطل مكانه . وزُلزلت من حوله أركانه . وفزع يطلب النصير . وثار يلتمس المجير . فلا يجد الا أسباباً تقطعت به . وأعضاداً فُتّ فيها بسببه .⁽⁴⁾ وقد رنّق قومه .⁽⁵⁾ وعبس يومه فيحملق الى الحق يأخذه ببصره . ويستنزله بنظره . ولكن خاب الظن . وبطل الفن . ثم لايلبث وهو الباطل ان يتحول

---

(١) المنن جمع منة بالضم وهى القوة (٢) مرهت العين خلت من الكحل أو فسدت لتركه (٣) رمحه طعنه بالرمح . والرامح ذو الرمح (٤) الفت الدق والكسر بالاصابع ويقولون « فت فى عضده » اذا كسر قوته وفرّق عنه أنصاره (٥) رنق القوم بالمكان (بتشديد النون) أقاموا وفي الامر خلطوا الرأي والطائر خفق بجناحيه ورفرف ولم يطر

عنده اليأس املاً . ويجد من اليبس بللاً . فيظن وهو هو ان الحق ناصره . وان ستقوى به أواصره . فيستنصر بجنده . ويطلب النجدة من عنده . واقرب ما يكون خصم الى الهلكة اذا اطمأن الى عدوه . وأمل الخير فى دنوه . هذا شأن الباطل وأهله . مع تقلبه فى ملله ونحله .

يعلم كل ناظر فى كتابنا الالهيّ (القرآن) ما رفع الاسلام من شأن الانبياء والمرسلين . والمنزلة التى أحلهم من حيث هم حملة الوحي وقدوة البشر فى الفضائل وصالح الاعمال وتنزيهه اياهم عما رماهم به اعداؤهم وما نسبه اليهم المعتقدون بأديانهم . ولا يخفى على أحد من أهل النظر في هذا الدين القويم انه قد قرر عصمة الرسل كافة من الزلل فى التبليغ والزيغ عن الوجهة التي وجه الله وجوههم نحوها من قول أو عمل وخص خاتمهم محمداً صلى الله عليه وسلم فوق ذلك بمزايا فصلت فى ثنايا الكتاب العزيز

عصمة الرسل فى التبليغ عن الله اصل من أصول الاسلام شهد به الكتاب وأيدته السنة وأجمعت عليه الامة . وما خالف فيه بعض الفرق فانما هو فى غير الاخبار عن الله وابلاغ وحيه الى خلقه . ذلك الاصل الذى اعتمدت عليه الاديان حق لا يرتاب

فيه ملِيٌّ يفهم ما معنى الدين .

مع ذلك لم يعدم الباطل فيه أعوانا يعملون على هدمه وتوهين ركنه أولئك عشاق الروايات وعبدة النقل . نظروا نظرة فى قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ » — — الآية وفيما روي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) من أن تمنى بمعنى قرأ والامنية القراءة فعمي عليهم وجه التأويل الحق على فرض صحة الرواية عن ابن عباس فذهبوا يطلبون ما به يصح التأويل فى زعمهم فقيّض لهم من يروي فى ذلك احاديث تختلف طرقها وتتباين الفاظها وتتفق فى أن النبي صلى الله عليه وسلم عند ما بلغ منه أذى المشركين ما بلغ وأعرضوا عنه وجفاه قومه وعشيرته لعيبه اصنامهم وزرايته على آلهتهم أخذه الضجر من إعراضهم ولحرصه على اسلامهم وتهالكه عليه تمنى ان لا ينزل عليه ما ينفرهم لعله يتخذ ذلك طريقاً الى استمالتهم واستنزالهم عن غيهم وعنادهم فاستمر به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة « والنجم اذا هوى » وهو فى نادي قومه وروي انه كان فى الصلاة وذلك التمنى آخذ بنفسه فطفق يقرأها فلما بلغ قوله : ومناة الثالثة الاخرى « ألقى الشيطان فى أمنيته » التي تمناها بان

وسوس له بما شيعها به فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط فمدح تلك الاصنام وذكر ان شفاعتهن ترتجى . فمنهم من قال انه عند مابلغ « ومناة الثالثة الاخرى » سها فقال : تلك الغرانيق العلى . وان شفاعتهن لترتجى . ومنهم من روى (الغرانقة العلى) ومنهم من روى (ان شفاعتهن ترتجي) بدون ذكر الغرانقة والغرانيق . ومنهم من قال انه قال (وانها لمع الغرانيق العلى) ومنهم من روى (وانهن لهن الغرانيق العلى . وان شفاعتهن لهي التي ترتجى) ففرح المشركون بذلك وعند ماسجد في آخر السورة سجدوا معه جميعاً

قال ابن حجر العسقلانى : وتعدد الطرق وصحة ثلاثة منها وان كانت مرسلة يدل على ان للواقعة أصلاً صحيحاً . وهذه الاسانيد الصحيحة — في رأيه — وان كانت مراسيل يحتج بها من يرى الاحتجاج بالحديث المرسل بل ومن لا يراه كذلك لانها متعددة يعضد بعضها بعضاً اه ولولا خوف التطويل لاتيت بجميع تلك الروايات ماصح عنده منها ومالم يصح ولكن لا أرى حاجة اليه في مقالي هذا

روى ذلك ابن جرير الطبري وشايعه عليه كثير من

المفسرين . وفي طباع الناس ألفُ الغريب . والتهافت على العجيب . فولعوا بهذه التفاسير واتخذوها عقدة ايمانهم حتى ظنوا — وبعض الظن اثم — ان لا معدل عنها . ولا سبيل فى فهم الآية الى سواها . ونسوا ما رآه جمهور المحققين فى تأويلها وذهب اليه الأئمة فى بيانها . حتى ثارت ثائرة الشبه هذه الايام فى نفوس كثير منهم وهم يزعمون انهم مسلمون واحسوا ان ذلك الضرب من التفسير لا يتفق مع أصل العصمة فى التبليغ وان فيه من الحجة للعدو مالا سبيل الى دفعه فلجأوا الى أهل العلم الصحيح يلتمسون منهم بيان المخرج مما سقطوا فيه . وتوهموا انهم يقررون لهم ما ألفوا . ثم ينقذونهم من الحيرة مع ثباتهم على ماحرفوا . ولكن ضل رأيهم . وخاب ظنهم . وسيقامون على المنهج . ويرون الحق ناصعاً ابلج

في صحيح البخاري : وقال ابن عباس فى « اذا تمنى القى الشيطان فى امنيته » : اذا حدّث القى الشيطان فى حديثه فيبطل الله مايلقي الشيطان ويحكم الله آياته . ويقال امنيته قراءته « الا أمانيّ » يقرؤون ولا يكتبون اه فتراه حكى تفسير الامنية بالقراءة بلفظ (يقال) بعد ما فسرها بالحديث رواية

عن ابن عباس وهذا يدل على المغايرة بين التفسيرين فما يدعيه الشراح ان الحديث فى رأى ابن عباس بمعنى التلاوة يخالف ظاهر العبارة ثم حكايته تفسير الامنية بمعنى القراءة بلفظ (يقال) يفيد انه غير معتبر عنده (وسيأتي ان المراد بالحديث حديث النفس)

وقال صاحب الابريز ان تفسير تمنى بمعنى قرأ والامنية بمعنى القراءة مروي عن ابن عباس فى نسخة على بن أبى طلحة عن ابن عباس ورواها على ابن صالح كاتب الليث عن معاوية ابن صالح عن علي بن ابى طلحة عن ابن عباس وقد علم ما للناس فى ابن ابى صالح كاتب الليث وان المحققين على تضعيفه . اه — هذا ما فى الرواية عن ابن عباس وهي اصل هذه الفتنة وقد رأيت ان المحققين يضعفون راويها

واما قصة الغرانيق فمع ما فيهما من الاختلاف الذى سبق ذكره جاء فى تميمها ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يفطن لما ورد على لسانه وان جبريل جاءه بعد ذلك فعرض عليه السورة فلما بلغ الكلمتين قال له ما جئتك بهاتين فحزن لذلك فأنزل الله عليه «وما أرسلنا» الآيات تسلية له كما انزل لذلك قوله : « وان

كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك لتفتري علينا غيره واذاً لاتخذوك خليلاً . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً . اذاً لأذقناك ضعف الحيوة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيراً » وفي بعض الروايات : ان حديث الغرانيق فشا فى الناس حتى بلغ أرض الحبشة فساء ذلك المسلمين والنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت « وما أرسلنا » الآية . قال القسطلاني فى شرح البخاري : وقد طعن في هذه القصة وسندها غير واحد من الائمة حتى قال ابن اسحق وقد سئل عنها : هى من وضع الزنادقة اه وكفى فى انكار حديث ان يقول فيه ابن اسحق انه من وضع الزنادقة مع حال ابن اسحق المعروفة عند المحدثين

وقال القاضي عياض : ان هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه أحد بسند متصل سليم وانما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم . ثم نقل عن أبي بكر ابن العلاء ما يدل على سقم الرواية واضطراب الرواة فيها وما يقضي عليها بالوهن والسقوط عن درجة الاعتبار . وقال الامام أبو بكر

ابن العربي — وكفى به حجة فى الرواية والتفسير — : ان جميع ماورد في هذه القصة لا أصل له

قال القاضي عياض والذى وردفى الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ « والنجم » وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس اه وقديكون ذلك لبلاغة السورة وشدة قرعها وعظم وقعها . ثم قال القاضى : قد قامت الحجة وأجمعت الامة على عصمته صلى الله عليه وسلم ونزاهته عن هذه الرذيلة إِمَّامِنْ تمنّيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر أو ان يتسود عليه الشيطان ويشبّه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ويعتقد النبي صلى الله عليه وسلم أن من القرآن ما ليس منه حتى يفهمه جبريل عليه السلام وذلك كله ممتنع فى حقه صلى الله عليه وسلم أو يقول ذلك النبي صلى الله عليه وسلم من قبل نفسه عمداً وذلك كفر أو سهواً وهو معصوم من هذا كله وقد قررنا بالبراهين والاجماع عصمته صلى الله عليه وسلم من جريان الكفر على لسانه أو قلبه لا عمداً ولا سهواً . أوان يشبه عليه مايلقيه الملَك مما يلقي الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل . أو ان يتقوّل

على الله لا عمداً ولا سهواً ما لم ينزل عليه وقد قال الله تعالى « ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » وقال « إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا » (ووجه ثان) وهو استحالة هذه القصة نظراً وعرفاً وذلك ان هذا الكلام لو كان كما روي لكان بعيد الالتئام . متناقض الاقسام . ممتزج المدح بالذم . متخاذل التأليف والنظم . ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم ومن بحضرته من المسلمين . وصناديد المشركين . ممن يخفى عليه ذلك . وهذا لايخفى على ادنى متأمل فكيف بمن رجح حلمه . واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه .

(ووجه ثالث) انه علم من عادة المنافقين . ومعاندة المشركين . وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين . نفورهم لأول وهلة . وتخليط العدو على النبي صلى الله عليه وسلم لأقل فتنة . وتعييرهم المسلمين والشماتة بهم الفينة بعد الفينة (١) وارتداد من في قلبه مرض ممن أظهر الاسلام لأدنى شبهة . ولم يحك أحد في هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الاصل . ولوكان

(١) الفينة كالعيلة الساعة والحين

ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة . ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة . كما فعلوا مكابرة فى قصة الاسراء . قال : ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت . ولا تشغيب للمعادي حينئذ أشدّ من هذه الحادثة لوامكنت .[1] وما ورد عن معاند فيها كلمة . ولا عن مسلم بسببها بنت شفة . فدل على بطلها واجتثاث أصلها . ولا شك فى ادخال بعض شياطين الانس والجن هذا الحديث على بعض مغفلي المحدثين . ليلبس به على ضعفاء المسلمين . (ووجه رابع) ذكر الرواة لهذه القصة ان فيها نزلت « وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك » الآيتان وهذان الآيتان تردان الخبر الذي رووه لأن الله تعالى ذكر انهم كادوا يفتنونه حتى يفتري ولولا أن ثبته لكاد يركن اليهم شيئاً قليلا . فمضمون هذا ومفهومه ان الله عصمه من ان يفتري وثبته حتى لم يركن اليهم قليلاً فكيف كثيراً . وهم يروون فى أخبارهم الواهية انه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم وانه صلى الله عليه وسلم قال : افتريت على الله وقلت مالم يقل . وهي تضعف الحديث لوصح فكيف ولا صحة له ؟ وهذا مثل

(١) التشغيب تهييج الشر

قوله تعالى فى الآية الاخرى « ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يُضلوك وما يُضلون الا أنفسهم وما يضرونك من شيء » قال القشيرى ولقدطالبه قريش وثقيف اذ مر بآلهتهم ان يقبل بوجهه اليها ووعدوه الايمان به ان فعل فما فعل ولا كان ليفعل . قال ابن الانباري ما قارب الرسول ولا ركن . انتهى المطلوب من كلام القاضى رحمه الله . وقد أورد بعد ذلك كثيراً من القول فى توهين الرواية وتكذيبها

أما ما ذكره ابن حجر من ان القصة رويت مرسلةمن ثلاث طرق على شرط الصحيح وانه يحتج بها الخ ما سبق فقد ذهب عليه كما قال فى الابريز ان العصمة من العقائدالتى يطلب فيها اليقين فالحديث الذي يفيد خرمها ونقضها لا يقبل على أيِّ وجه جاء وقد عدَّ الاصوليون الخبر الذى يكون على تلك الصفة من الاخبار التي يجب القطع بكذبها . هذا لو فرض اتصال الحديث فماظنك بالمراسيل وانما الخلاف فى الاحتجاج بالمرسل (١)

(١) الحديث المرسل هو الذي سقط من سنده من بعد التابعي والجمهور يتوقفون عن الاحتجاج به لجواز أن يكون الساقط غير صحابي

وعدم الاحتجاج به فيما هو من قبيل الاعمال وفروع الاحكام لا فى أصول العقائد ومعاقد الايمان بالرسل وما جاؤا به فهي هفوة من ابن حجر يغفرها الله له

هذا ما قاله الأئمة جزاهم الله خيراً فى بيان فساد هذه القصة وانها لا أصل لها ولا عبرة برأي من خالفهم فلا يعتد بذكرها فى بعض كتب التفسير وان بلغ أربابها من الشهرة ما بلغوا وشهرة المبطل فى بطله لا تنفخ القوة فى قوله ولا تحمل على الأخذ برأيه

﴿ تفسير الآيات ﴾

والآن أرجع الى تفسير الآيات على الوجه الذى تحتمله الفاظها وتدل عليه عباراتها والله أعلم

لا يخفى على كل من يفهم اللغة العربية وقرأ شيئاً من القرآن ان قوله تعالى « وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي » الآيات يحكي قدَراً قُدِّر للمرسلين كافة لا يعدونه ، ولا يقفون دونه ، ويصف شنشنة عرفت فيهم وفى أممهم . فلو صح ما قال اولئك المفسرون لكان المعنى ان جميع الانبياء والمرسلين قد سُلِّط الشيطان عليهم ، فخلط فى الوحي المنزل اليهم ، ولكنه

بعد هذا الخلط ينسخ الله كلام الشيطان ويحكم الله آياته الخ . وهذا من اقبح ما يتصور متصور فى اختصاص الله تعالى لانبيائه ، واختيارهم من خاصة أوليائه ، فلندع هذا الهذيان ولنعد الى مانحن بصدده

ذكر الله لنبيّه حالاً من أحوال الانبياء والمرسلين قبله ليبين له سنته فيهم . وذلك بعد أن قال « وانْ يكذِّبوك فقد كذبت قبلهم قومُ نوح وعادٌ وثمودُ وقومُ ابراهيم وقومُ لوط واصحاب مدين وكُذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير . » — الى آخر الآيات . ثم قال : « قل يا أيها الناس انما أَنا لكم نذيرٌ مبينٌ . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزقٌ كريمٌ . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين اولئك أصحاب الجحيم . وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبيٍّ » الخ فالقصص السابق كان فى تكذيب الامم لأنبيائهم ثم تبعه الامر الالهي بأن يقول النبي صلى الله عليه وسلم لقومه انني لم أرسل اليكم الا لانذاركم بعاقبة ما أنتم عليه ولأبشر المؤمنين بالنعيم واما الذين يسعون فى الآيات والادلة التي اقيمها على الهدى وطرق السعادة ليحولوا عنها الانظار ، ويحجبوها

عن الابصار ، ويفسدوا أثرها الذي اقيمت لاجله ويعاجزوا بذلك النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين اى يسابقونهم ليعجزوهم ويسكتوهم عن القول وذلك بلعبهم بالالفاظ وتحويلها عن مقصد قائلها كما يقع عادة من أهل الجدل والمماحكة — هؤلاء الضالون المضلون هم أصحاب الجحيم . واعقب ذلك بما يفيد ان ماابتُلي به النبي صلى الله عليه وسلم من المعاجزة فى الآيات قد ابتلي به الانبياء السابقون فلم يبعث نبي فى أمة الا كان له خصوم يؤذونه بالتأويل والتحريف ويضادّون امانيه ويحولون بينه وبين مايبتغي بما يلقون فى سبيله من العثرات . فعلى هذا المعنى الذى يتفق مع مالقيه الانبياء جميعاً يجب ان تفسر الآية وذلك يكون على وجهين

﴿ الاول ﴾ ان يكون تمنى بمعنى قرأ والامنية بمعنى القراءة وهو معنى قد يصح وقد ورد استعمال اللفظ فيه . قال حسان ابن ثابت فى عثمان رضى الله عنهما :

تمنّى كتاب الله اول ليله وآخره لاقى حِمَام المقادر

وقال آخر

تمنى كتاب الله اول ليله تمنّيَ داود الزبور على رسل

غير ان الالقاء لا يكون على المعنى الذى ذكروه بل على المعنى المفهوم من قولك « أُلقيتُ فى حديث فلان » اذا ادخلت فيه ما ربما يحتمله لفظه ولا يكون قد أراده او نسبت اليه مالم يقله تعللا بأن ذلك الحديث يؤدي اليه . وذلك من عمل المعاجزين الذين ينصبون انفسهم لمحاربة الحق يتبعون الشبهة ويسعون وراء الريبة فالالقاء بهذا المعنى دأبهم ونسبة الالقاء الى الشيطان لانه مثير الشبهات بوساوسه ، مفسد القلوب بدسائسه ، وكل مايصدر من أهل الضلال يصح ان ينسب اليه ويكون المعنى : وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبي الا اذا حدث قومه عن ربه او تلا وحياً انزل اليه فيه هدى لهم قام فى وجهه مشاغبون يحوّلون مايتلوه عليهم عن المراد منه ، ويتقولون عليه مالم يقله ، وينشرون ذلك بين الناس ليبعدوهم عنه ، ويعدلوا بهم عن سبيله ، ثم يحق الله الحق ، ويبطل الباطل ، ولا زال الانبياء يصبرون على ما كُذِّبوا وأوذوا ويجاهدون فى الحق ولا يعتدُّون بتعجيز المعجزين ، ولا بهزء المستهزئين ، الى ان يظهر الحق بالمجاهدة ، وينتصر على الباطل بالمجالدة ، فينسخ الله تلك الشبه ويجتثّها من اصولها ، ويثبت آياته ويقررها ، وقد

وضع الله هذه السنة فى الناس ليتميز الخبيث من الطيب فيفتتن الذين فى قلوبهم مرض وهم ضعفاء العقول بتلك الشبه والوساوس فينطلقون وراءها ويفتتن بها القاسية قلوبهم من أهل العناد والمجاحدة فيتخذونها سنداً يعتمدون عليها فى جدلهم ثم يتمحص الحق عند الذين أوتوا العلم ويخلص لهم بعد ورود كل شبهة عليه فيعلموا انه الحق من ربك فيصدقوا به فتخبت وتطمئن له قلوبهم. والذين أوتوا العلم هم الذين رزقوا قوة التمييز بين البرهان القاطع الذى يستقر بالعقل فى قرارة اليقين، وبين المغالطات وضروب السفسطة التي تطيش بالفهم، وتطير به مع الوهم، وتأخذ بالعقل تارة ذات الشمال واخرى ذات اليمين، وسواء ارجعت الضمير فى « أنه الحق » الى ماجاءت به الآيات المحكمة من الهدى الآلهي أو الى القرآن وهو أجلها فالمعنى من الصحة على مايراه أهل التمكين.

هؤلاء الذين أوتوا العلم هم الذين آمنوا وهم الذين هداهم الله الى الصراط المستقيم، ولم يجعل للوهم عليهم سلطاناً فيحيد بهم عن ذلك النهج القويم. وأما الذين كفروا وهم ضعفاء العقول ومرضى القلوب أو أهل العناد وزعماء الباطل وقساة الطباع

الذين لا تلين افئدتهم، ولا تبش للحق قلوبهم، فأولئك لا يزالون في ريب من الحق أو الكتاب لا تستقر عقولهم عليه، ولا يرجعون في متصرفات شؤنهم اليه، حتي تأتي ساعة هلاكهم بغتة فيلاقون حسابهم عند ربهم. أو ان امتد بهم الزمن ومادّهم الاجل، فسيصيبهم «عذاب يوم عقيم» يوم حرب يسامون فيه سوء عذاب القتل او الاسر، ويقذفون الى مطارح الذل وقرارات الشر، فلا يُنْتج لهم من ذلك اليوم خير ولا بركة، بل يسلبون ما كان لديهم ويساقون الى مصارع الهلكة، وهذا هو العقم في أتم معانيه وأشأم درجاته

ما أقرب هذه الآيات في مغازيها الى قوله تعالى في سورة آل عمران «هو الذى أنزلَ عليك الكتابَ منه آيات محْكمات هنّ أمُّ الكتاب وأُخر متشابهات. فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتَّبِعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلهِ وما يعلم تأويله الا اللهُ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا وما يذّكر الا أولو الالباب» وقد قال بعد ذلك: «ان الذين كفروا لن تُغنيَ عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وَقود النار» ثم قال: «قل للذين كفروا ستُغلبون وتحشرون

الى جهنم وبئس المهاد » الخ الآيات . وكأن احدى الطائفتين من القرآن شرح للاخرى . فالذين فى قلوبهم زيغ هم الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم . والراسخون فى العلم هم الذين أوتو العلم . وهؤلاء هم الذين يعلمون انه الحق من ربهم فيقولون آمنا به كل من عند ربنا فتخبت له قلوبهم وان الله لهاديهم الى صراط مستقيم . وأولئك هم الذين يفتنون بالتأويل . ويشتغلون بقال وقيل . بما يلقي اليهم الشيطان . ويصرفهم عن مرامي البيان . ويميل بهم عن محجة الفرقان . وما يتكؤن عليه من الاموال والاولاد لن يغني عنهم من الله شيئاً فستوافيهم آجالهم . وتستقبلهم أعمالهم . فان لم يوافهم الاجل على فراشهم . فسيغلبون فى هراشهم .[1] وهذه سنة جميع الانبياء مع اممهم . وسبيل الحق مع الباطل من يوم رفع الله الانسان الى منزلة يميز فيها بين سعادته وشقائه . وبين ما يحفظه وما يذهب ببقائه . وكما لامدخل لقصة الغرانيق فى آيات آل عمران لامدخل لها فى آيات سورة الحج : هذا هو الوجه الاول فى تفسير آيات « وما أرسلنا » الى آخرها على تقدير

(١) الهراش المواثبة والمخاصمة

ان تمنى بمعنى قرأ وان الامنية بمعنى القراءة والله أعلم

(الوجه الثاني في تفسير الآيات) ان التمني على معناه المعروف وكذلك الامنية وهي أُفعُولَة بمعنى المُنية وجمعها امانيّ كما هو مشهور. قال أبو العباس احمد بن يحيي: التمني حديث النفس بما يكون وبما لا يكون. قال: والتمني سؤال الرب وفي الحديث «اذ تمنى أحدكم فليتكثر فانما يسأل ربه» وفي رواية «فليكثر» قال ابن الاثير: التمني تشهي حصول الامر المرغوب فيه وحديث النفس بما يكون وما لا يكون. وقال أبو بكر: تمنيت الشيء اذا قدرته وأحببت أن يصير اليّ. وكل ما قيل في معنى التمنى على هذا الوجه فهو يرجع الى ماذكرنا ويتبعه معنى الامنية

ما أرسل الله من رسول ولا نبيّ ليدعو قوماً الى هدي جديد أو شرع سابق شرعه لهم ويحملهم على التصديق بكتاب جاء به نفسه ان كان رسولا أو جاء به غيره ان كان نبياً بُعِثَ ليحمل الناس على اتباع من سبقه الا وله أمنية في قومه وهي أن يتبعوه ويتجاوزوا الى مايدعوهم اليه، ويستشفوا من دائهم بدوائه . ويعصوا أهواءهم باجابة ندائه. وما من رسول أرسل

الا وقد كان أحرص على أيمان أمته . وتصديقهم برسالته . منه على طعامه الذى يطعم . وشرابه الذى يشرب . وسكنه الذى يسكن اليه . ويغدو عنه ويروح عليه . وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم من ذلك فى المقام الاعلى . والمكان الاسمى . قال الله تعالى : « فلعلَّك باخعٌ نفسك علي آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » وقال « وما أكثرُ الناس ولو حرصت بمؤمنين » وقال : « أفأنت تُكرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين » وفى الآيات مايطول سرده مما يدل على أمانيه صلى الله عليه وسلم المتعلقة بهداية قومه واخراجهم من ظلمات ما كانوا فيه الى نور ما جاء به

وما من رسول ولا نبيّ الا اذا تمنى هذه الامنية السامية ألقى الشيطان فى سبيله العثرات . وأقام بينه وبين مقصده العقبات . ووسوس فى صدور الناس . وسلبهم الانتفاع بما وهبوا من قوة العقل والاحساس . فثاروا فى وجهه . وصدّوه عن قصده . وعاجزوه حتى لقد يعجزونه . وجادلوه بالسلاح والقول حتي لقد يقهرونه . فاذا ظهروا عليه والدعوة فى بدايتها وسهل عليهم ايذاؤه وهو قليل الاتباع ضعيف الانصار ظنوا

الحق من جانبهم وكان فيما القوه من العوائق بينه وبين ماعمد اليه فتنة لهم

غلبت سنة الله فى أن يكون الرسل من أواسط قومهم أومن المستضعفين فيهم ليكون العامل فى الاذعان بالحق محض الدليل وقوة البرهان وليكون الاختيار المطلق هو الحامل لمن يدعى اليه على قبوله ولكيلا يشارك الحق الباطل فى وسائله . أو يشاركه فى نصب شراكه وحبائله . أنصار الباطل فى كل زمان هم أهل الانفة والقوة والجاه والاعتزاز بالاموال والاولاد والعشيرة والاعوان والغرور بالزخارف . والزهو بكثرة المعارف . وتلك الخصال انما تجتمع كلها أو بعضها فى الرؤساء وذوي المكانة من الناس فتذهلهم عن أنفسهم . وتصرف نظرهم عن سبيل رشدهم . فاذا دعا الى الحق داع عرفته القلوب النقية من أوضار هذه الفواتن . وفزعت اليه النفوس الصافية والعقول المستعدة لقبوله بخلوصها من هذه الشواغل . وقلما توجد الا عند الضعفاء وأهل المسكنة . فاذا التف هؤلاء حول الداعي وظافروه على دعوته قام أولئك المغرورون يقولون « ما نراك الا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي

وماترى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » فاذا استدرجهم الله على سنته وجعل الجدال بينهم وبين المؤمنين سجالاً افتتن الذين فى قلوبهم مرض من أشياعهم . وافتتنوا هم بما أصابوا من الظفر فى دفاعهم . ولكن الله غالب على أمره فيمحق ما ألقاه الشيطان من هذه الشبهات . ويرفع هذه الموانع وتلك العقبات . ويهب السلطان لآياته فيحكمها . ويثبت دعائمها . وينشئ من ضعف انصارها قوة ، ويخلف لهم من ذلتهم عزة ، وتكون كلمة الله هى العليا . وكلمة الشيطان هي السفلى . « فأما الزَّبَدُ فيذهب جُفاءً وأما ماينفع الناس فيمكث فى الارض »

وفى حكاية هذه السنة الالهية التي أقام عليها الانبياء والمرسلين . تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم عما كان يلاقي من قومه ووعد له بأن سيكمل له دينه . ويتم عليه وعلى المؤمنين نعمته . مع استلفاتهم الى سيرة من سبقهم . « أحسِب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسَّتهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه

متى نصر الله الا إنَّ نصر الله قريب » هذا هو التأويل الثاني في معنى الآية ويدل عليه ماسبق من الآيات ويرشد اليه سياق القصص السابق في قوله « وان يكذبوك فقد كَذبت قبلهم قوم نوح » الخ . وأنت ترى ان قصة الغرانيق لاتتفق مع هذا المعنى الصحيح . وهناك تأويل ثالث ذكره صاحب الابريز واني أنقله بحروفه وما هو بالبعيد عن هذا بكثير . قال بعد ذكر أماني الانبياء في أممهم وطمعهم في ايمانهم وشأن نبينا صلى الله عليه وسلم في ذلك على نحو يقرب مما ذكرناه في الوجه الثاني :

« ثم الامة تختلف كما قال تعالى « ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر » فأما من كفر فقد ألقى اليه الشيطان الوساوس القادحة له في الرسالة الموجبة لكفره . وكذا المؤمن أيضاً لايخلو أيضاً من وساويس لانها لازمة للايمان بالغيب في الغالب وان كانت تختلف في الناس بالقلة والكثرة وبحسب المتعلقات . اذا تقرر هذا فمعنى تمنى انه يتمنى لهم الايمان ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح فهذه أمنية كل رسول ونبي والقاء الشيطان فيها يكون بما يلقيه في قلوب أمة الدعوة من الوساويس

الموجبة لكفر بعضهم ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة ويبقي ذلك عز وجل في قلوب المنافقين والكافرين ليفتتنوا به . نخرج من هذا ان الوساويس تلقى أولاً في قلوب الفريقين معاً غير انها لا تدوم على المؤمنين وتدوم على الكافرين » اه وأنت اذا نظرت بين هذا التفسير وبين ماسبقه تبين الاحق بالترجيح

لو صح ماقاله نقلة قصة الغرانيق لارتفعت الثقة بالوحي وانتقض الاعتماد عليه كما قاله القاضي البيضاوي وغيره ولكان الكلام في الناسخ كالكلام في المنسوخ يجوز ان يلقي فيه الشيطان مايشاء ولانهدم أعظم ركن للشرائع الالهية وهو العصمة . وما يقال في المخرج عن ذلك ينفر منه الذوق ولا ينظر اليه العقل . على ان وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرانيق العلى لم يرد لا في نظمهم ولا في خطبهم ولم ينقل عن أحد ان ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم الا ماجاء في معجم ياقوت غير مسند ولا معروف بطريق صحيح وهذا يدل على ان القصة من اختراع الزنادقة كما قال ابن اسحق وربما كانت

منشأ ما أورده ياقوت . ولا يخفى ان الغُرنوق والغُرنَيْق لم يعرف في اللغة الا اسماً لطائر مائي اسود أو أبيض أو هو اسم الكركي أو طائر يشبهه . والغرنيق (بالضم وكزنبور وقنديل وسَمَوْأل وفردوس وقرطاس وعُلابط) معناه الشاب الابيض الجميل وتسمى الخصلة من الشعر المفتلة الغرنوق كما يسمى به ضرب من الشجر . ويطلق الغرنوق والغرانق على مايكون في أصل العوسج اللين النبات . ويقال لِمَّة غُرانِقة وغُرانِقِيَّة أي ناعمة تفيئها الريح أو الغرنوق الناعم المستتر من النبات الخ ولا شيء في هذه المعاني يلائم الآلهة والاصنام حتى يطلق عليها في فصيح القول الذي يعرض على ملوك البلاغة وأمراء الكلام . فلا أظنك تعتقد الا أنها من مفتريات الاعاجم ومختلقات الملبسين ممن لا يميز بين حر الكلام ، وما استعبد منه لضعفاء الاحلام ، فراج ذلك على من يذهله الولوع بالرواية . عما تقتضيه الدراية . « ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب »

المقالة الثالثة

(مسئلة زيد وزينب — أو ابطال التبني وتفسير الآيات في ذلك)

« نشرت فى العدد السابع والعشرين من مجلة المنار للسنة الثالثة »

علم القراء مما كتبناه في وضع الحديث أسبابه (أي في المنار) ان من الواضعين عن سوء القصد قوماً كانوا يتظاهرون بالصلاح لأجل أن تقبل رواياتهم وان منهم من كان يضع لقصد حسن بحسب ما أداه اليه فكره القاصر وعقله الضعيف وان النتيجة من هذا ان قبول الحديث لا يصح أن يكون موقوفاً على قوة سنده وضعفه فقط بل تجب مراعاة أمور أخرى كانطباقه على قواعد الشريعة العامة وعقائد الدين الصحيحة وغير ذلك مما لا محل لشرحه هنا. فاذا جاءت الرواية على خلاف ذلك بأن كانت لا تنطبق على ماجاء في القرآن أو مايليق بجلال الله وتنزيهه وحرمة دينه وعصمة أنبيائه وكرامتهم وجب رفضها وعدم قبولها سواء أطعن بسندها أم لا .

ومما يدخل في هذا الباب مارووه في مسئلة زيد بن حارثة وطلاقه لزينب (رضي الله عنهما) وان سببه عشق النبي صلى

الله تعالى عليه وسلم لها فقد كانت هذه الرواية المشؤمة التي لطخت بها صفحات أكثر التفاسير ولم ينظر في اخلالها بمقام الرسالة ومايليق بتلك الاخلاق التي شهد الله لها بالعظمة — شبهة على الاسلام ومجرأة لغير أهله على الخوض في النبي الاكرم صلى الله عليه وسلم والاستدلال بذلك على عدم صحة نبوته حتى لاتكاد تجد كتاباً من الكتب التي ألفها دعاة النصرانية في الطعن بدين الاسلام وتنفير أهله منه الا وهذه المسئلة تكأتهم العظمى فيه بما يزيدونها من التشويه . وقد سأل أحد فضلاء تونس في هذه الايام مولانا حكيم الامة . وخاتمة الأئمة . الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية عن تفسير الآيات الواردة في هذه المسئلة فأجاب حفظه الله تعالى بهذا الجواب . الذي هو لب اللباب . وآية الحكمة وفصل الخطاب . وهو بنصه :

« وإِذ تقولُ للذي أَنعمَ اللهُ عليه وأنعمْتَ عليه أَمْسِكْ عليك زوْجَكَ واتّقِ اللهَ وتُخْفِي فى نفسك ما اُللهُ مُبْدِيهِ وتخشَى الناسَ واللهُ أحَقُّ ان تخشاه فلما قضى زيْدٌ منها وَطَرًا زوَّجنا كها لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ فى ازواجِ أدْعِيائِهِم اذا

قضَوْا منهنَّ وَطراً وكان امرُ اللهِ مفعولا »

نزل قبل هذه الآية قوله تعالى « وما كان لمؤمن ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُهُ امراً أن يكونَ لهمُ الخيَرَةُ من امرهم ومَن يَعْصِ اللهَ ورسولَهُ فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً »

نزلت هذه الآية فى زينب بنت جحش وهي بنت عمته صلى الله عليه وسلم أميمة بنت عبد المطلب وقدخطبها الرسول على مولاه زيد بن حارثة [1] فأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش فنزلت آية « وما كان لمؤمن الخ » فلما نزلت الآية قالا رضينا يا رسول الله فأنكحها اياه وساق عنه اليها مهرها ستين درهماً وخماراً وملحفة ودرعاً وازاراً وخمسين مدًّا من طعام وثلاثين صاعاً من تمر كذا يروى

فنحن نرى من جهة ان زينب كانت بنت عمة النبي صلى الله عليه وسلم ربيت تحت نظره وشملها من عنايته مايشمل البنت من والدها لاول الامر حتى انه اختارها لمولاه زوجة مع إبائها وإباء أخيها وعدَّ إباءها هذا عصياناً ولازالت كذلك حتى نزل فى شأنها قرآن فكأنهُ ارغمها على زواجه لما ألهمه الله

(١) يقال خطب فلانة على فلان اى جعلها خطيبة له

من المصلحة لها وللمسلمين في ذلك . ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم لكان أقوى سلطانه عليه جمال البكر فى روائه ونضرة جدَّته وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب ولا يخفى عليه شئ من محاسنها الظاهرة ولكنه لم يرغبها لنفسه ورغبها لمولاه فكيف يمتد نظره اليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد ان صارت زوجة لعبد من عبيده انعم عليه بالعتق والحرية . لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر ان تعظم شهوة القريب وولعه بالقريب الى أن تبلغ حد العشق خصوصاً اذا كان عشيره منذ صغره بل المألوف زهادة الاقرباء بعضهم فى بعض متى تعوّد بعضهم النظر الى بعض من بداية السن الى أن يبلغ حدًّا منه يجول فيه نظر الشهوة فكيف نظن أو نتوهم أن النبيَّ الذى يقول الله له « ولا تمُدَّنَّ عينيك الى ماامتعنا به أزواجاً منهم زهرةَ الحياةِ الدنيا » يخالف مألوف العادة ثم يخالف أمر الله فى ذلك ؟ أم كيف يخطر بالبال ان من عصم الله قلبه عن كل دنيئة يغلب عليه سلطان شهوة فى بنت عمته بعد ان زوّجها بنفسه لعبد من عبيده ؟

ومن جهة أخرى نرى ان النبي صلى الله عليه وسلم وهو

الرؤف الرحيم لم يبال بإباء زينب ورغبتها عن زيد وقدكان لايخفى عليه ان نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة وتفسد به شؤن المعيشة فما كان له وهو سيدالمصلحين ان يرغم امرأة على الاقتران برجل وهي لا ترضاه مع ما فى ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين . لاريب اننا نجد من ذلك هادياً الى وجه الحق فى فهم الآية التي نحن بصدد تفسيرها

ذلك ان التصاق الادعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها كان أمراً تدين به العرب وتعده اصلا يرجع اليه فى الشرف والحسب . وكانوا يعطون الدعيّ جميع حقوق الابن ويجرون عليه وله جميع الاحكام التي يعتبرونها للابن حتى في الميراث وحرمة النسب . وهى عقيدة جاهلية رديئة اراد الله محوها بالاسلام حتى لايعرف من النسب الا الصريح . ولا يجرى من احكامه الا ماله اساس صحيح . لهذا انزل الله « وماجعل أدعياءكم ابناءكم ذلكم قولكم بافواهكم والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل » ثم قال « ادعوهم لآبائهم هواقسط عندالله » الخ . فهذا هو العدل الآلهي ان لا ينال حق الابن الا من يكون ابناً . أمَّا المُتبنَّى واللصيق فلا يكون له الاَّحق المولى والاخ

فى الدين . فحرم الله على المسلمين ان ينسبوا الدعيّ لمن تبنّاه . وحظر عليهم ان يقتطعوا له شيئاً من حقوق الابن لا قليلا ولا كثيراً وشدد الامر حتى قال « وليس عليكم جناح فيما اخطأتم به ولكن ماتعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما » فهو يعفو عن اللفظة تصدر من غير قصد بأن يقول الرجل لآخر هذا ابني او ينادى شخص آخر بمثل ذلك لا عن قصد التبني ولكنه لا يعفو عن العمد من ذلك الذى يقصد منه الالصاق بتلك اللحمة كما كان معروفا من قبل

مضت سنة الله فى خلقه ان ما رسخ فى النفس بحكم العادة لا يسهل عليها التفَصّي منه ولا يقدر على ذلك الا من رفعه الله فوق العادات . واعتقه من رق الشهوات . وجعل همته فوق المألوفات . فلا يطّبيه الا الحق (١) ولا يحكم عليه الف (٢) ولا يغلبه عُرف . ذلك هو النبي صلى الله عليه وسلم ومن يختصه الله بالتأسي به لهذا كان الامر اذا نهى الله عن مكروه كانت الجاهلية

---

(١) اطباه بالتشديد استماله قال ابن دريد :

لا يطبيني طمع مدنس   اذا استمال طمع أو اطبى

(٢) الالف بالفتح مصدر ألف واما الالف بالكسر فهو الآلف أى العشير المؤانس

عليه او احل شيئاً كانت الجاهلية تحرمه بادر النبي صلى الله عليه وسلم الى امتثال النهي بالكف عن المنهي عنه والاتيان بضده وسارع الى تنفيذ الامر باتيان المأمور به حتى يكون قدوة حسنة ومثالا صالحاً تحاكيه النفوس وتحتذيه الهمم وحتى يخف وزر العادة وتخلص العقول من ريب الشبهة .

نادى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بحرمة الربا وأول ربا وضعه ربا عمه العباس حتى يرى الناس صنيعه بأقرب الناس اليه واكرمهم عليه فيسهل عليهم ترك مالهم وتنقطع وساوس الشيطان من صدورهم

على هذا السنن الآلهى كان عمل النبي صلى الله عليه وسلم فى أمر زينب . كبر على العرب ان يفصلوا عن أهلهم من ألصقوه بأنسابهم من ادعيائهم كما دل عليه قوله تعالى « وتخشى الناس » الخ فعمد النبي صلى الله عليه وسلم على سنته الى خرق العادة بنفسه وما كان(١) ينبغي له ولا من مقتضى الحكمة ان يكلف أحد الادعياء

---

(١) قوله (ماكان الخ) اى ليس من شأنه ذلك ولا من مقتضى سنته وحكمته لان هذا تربية والتربية لاتدور الاعلى قطب الاسوة وفي مسئلة الحلق في الحديبية عبرة ومثل فقد خالفوا الامر بالقول حتى حلق فحلقوا

الا باعد عنه ان يتزوج ثم يأمره بالطلاق ثم يأمر من كان قد تبنّاه ان يتزوج مطلّقته ففي ذلك من المشقة مع تحكم العادة وتمكن الاشمئزاز من النفوس ما لا يخفى على أحد . فألهمه الله ان يتولى الامر بنفسه فى أحد عتقائه لتسقط العادة بالفعل كما ألغى حكمها بالقول الفصل

لهذا ارغم النبي صلى الله عليه وسلم زينب ان تتزوج بزيد وهو مولاه وصفيه والنبي يجد فى نفسه ان هذا الزواج مقدمة لتقرير شرع وتنفيذ حكم آلهي . وبعد ان صارت زينب الى زيد لم يَلِنْ إباؤها الاول ولم يسلس قيادها بل شمخت بانفها وذهبت تؤذي زوجها وتفخر عليه بنسبها وبانها اكرم منه عرقا واصرح منه حرية لانه لم يجر عليها رق كما جرى عليه فاشتكى منها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم المرة بعد المرة وهو عليه السلام مع علوّ مقامه يغلبه الحياء فيتَّئِد ويتمكث فى تنفيذ حكم الله ولا يعجل فكان يقول لزيد « أَمْسِكْ عليك زوجك واتّق الله » الى ان غلب أمرُ الله على امر الأَنَفة وسمح لزيد بطلاقها بعد ان مضه العيش معها ثم تزوجها بعد ذلك رسول الله ليمزق حجاب تلك العادة ويكسر ذلك الباب الذي كان مغلقاً دون مخالفتها كما قال « لكيلا يكونَ على

المؤمنين حَرَجٌ في أزواج أدعيائِهم اذا قضوا منهن وَطراً وكان أمرُ الله مفعولاً » واكّد ذلك بالتصريح فى نفي الشبهة بقوله: « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكنْ رسولَ الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيءٍ عليما » هذه هي الرواية الصحيحة والقولة الراجحة

ذكر الله نبيه بما وقع منه ليزيده تثَبيتاً على الحق وليدفع عنه ماحاك فى صدور ضعاف العقول ومرضى القلوب فقال « واذ تقول للذى أنعم الله عليه » بالاسلام « وانعمت عليه » بالعتق والحرية والاصطفاء بالولاية والمحبة وتزويجه بنت عمتك وتعظه عند ما كان يشكو اليك من ايذاء زوجه « امسك عليك زوجك واتق الله » واخشه في أمرها فان الطلاق يشينها وقد يؤذي قلبها وارع حق الله فى نفسك ايضاً فربما لاتجد بعدها خيراً منها — تقول ذلك وانت تعلم ان الطلاق لابد منه بما الهمك الله ان تمتثل امره بنفسك لتكون اسوةً لمن معك ولمن يأتي بعدك وانما غابك فى ذلك الحياء وخشية ان يقولوا تزوج محمد مطلَّقة مُتَبَنّاه فانت فى هذا « تخفي فى نفسك ما الله مبديه » من الحكم الذى الهمك « وتخشى الناس واللهُ » الذى أمرك بذلك كله « احق ان تخشاه » فكان عليك ان تمضي في الامر من

اول وهلة تعجيلا بتنفيذ كلمته وتقرير شرعه . ثم زاده بياناً بقوله « فلما قضى زيد منها وطراً » اي حاجة بالزواج « زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في ازواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطراً » لترتفع الوحشة من نفوس المؤمنين ولا يجدوا في أنفسهم حرجاً من ان يتزوجوا نساء كن من قبل زوجات لادعيائهم « وكان امر الله مفعولاً »

وأما مارووه من ان النبي مرّ ببيت زيد وهو غائب فرأى زينب فوقع منها في قلبه شيء فقال : سبحان مقلب القلوب . فسمعت التسبيحة فنقلتها الى زيد فوقع في قلبه أن يطلقها الخ ماحكوه فقد قال الامام أبو بكر بن العربي انه لا يصح وان الناقلين له المحتجين به على مزاعمهم في فهم الآية لم يقدروا مقام النبوّة حق قدره ولم تصب عقولهم من معنى العصمة كنهها وأطال في ذلك وأذكر من كلامه مايؤيد ماذكرنا في شأن هذه الروايات قال بعد الكلام في عصمة النبيّ صلى الله عليه وسلم وطهارته من العيب في زمن الجاهلية وبعد ان جاء الاسلام « وقد مهدنا لك روايات كلها ساقطة الاسانيد وانما الصحيح منها ماروي عن عائشة انها قالت لوكان النبيّ صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحى لكتم هذه الآية

«وإذ تقولُ للذي أنعمَ اللهُ عليه» يعني بالاسلام «وأنعمْتَ عليه» فأعتقتَهُ «أمْسِكْ عليك زوْجكَ» الى قوله «وكان أمْرُ اللهِ مفعولا» وإن رسول الله لما تزوجها قالوا تزوج حليلة ابنه فأنزل الله «ما كانَ محمدٌ أبا أحدٍ من رجالِكم» الآية وكان رسول الله تبناه وهو صغير فلبث حتى صار رجلاً يقال له زيد بن محمد فأنزل الله «أدعوهم لآبائهم هوَ أقسطُ عندَ اللهِ» يعني إنه أعدل عند الله قال القاضي وما وراء هذه الآية غير معتبر فأما قولهم ان النبي صلى الله عليه وسلم رآها فوقعت في قلبه فباطل فانه كان معها في كل وقت وموضع ولم يكن حينئذ حجاب فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها في كل ساعة ولا تقع في قلبه الا اذا كان لها زوج وقد وهبته نفسها وكرهت غيره فلم يخطر ذلك بباله فكيف يتجدد هوى لم يكن حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة وقد قال سبحانه وتعالى «ولا تمدَّنَّ عينيكَ الى ما متعنا بهِ أزواجاً منهمْ زهرةَ الحياةِ الدنيا لنفتنهم فيهِ» والنساء أفتن الزهرات وأنشر الرياحين ولم يخالف هذا في المطلقات فكيف في المنكوحات المحبوسات» ثم ساق الكلام في تفسير الآية على حسب ما صح في الواقعة

ولولا خوف التطويل لنقلت كلامه بحروفه ·

سبحان الله كيف ساغ لقوم مسلمين أن يعتقدوا بمثل هذه الروايات وقد علموا ان الله لم يدع لنبيه أن يُعرِض عن ابن أم مكتوم ويتصدى لصناديد قريش طمعاً في اسلامهم حتى عاتبه على ذلك في قوله « عبس وتولّى » الخ الآيات مع انه لم ينصرف عن الاعمى الا لاشتغاله بما كان يعدُّه في نفسه خيراً للدين ولم يكن رغبة في جاه ولا شرهاً الى مال ولا طموحاً الى لذة . فلو صحت الرواية التي زعموها في شأن زينب لكان العتاب على تلك التسبيحة بمسمع من زينب ثم على الزواج بعد الطلاق كما أشار اليه في قصة داود عليه السلام . وما كان محمد في علوّ مقامه ورفعة منزلته من النبوة لتطمح نفسه الى التلذذ ببنت عمته وزوجة مولاه ولا أن يُسمعها ما يدل على شغفه بها ولا ان تضعف عزيمته عن قمع شهوته وكبح جماحها وما كان رب محمد يعلل شهوته ويرفِّهَ من هواه فيما يخالف أمره وهو الذي نهاه أن يمدَّ عينيه الى ما متع الله به الناس من زهرة الحياة الدنيا ومن زهرتها النساء . تسامى قدر محمد عن ذلك وتعالى شأن ربه عن هذا علوًّا كبيراً

أما والله لو لا ما أدخل الضعفاء أو المدلسون من مثل هذه الرواية ماخطر ببال مطلع على الآية الكريمة شيء مما يرمون اليه فان نص الآية ظاهر جلي لايحتمل معناه التأويل ولا يذهب الى النفس منه الا أن العتاب كان على التمهل في الامر والتريّث به وان الذي كان يخفيه في نفسه هو ذلك الامر الالهي الصادر اليه بأن يهدم تلك العادة المتأصلة فى نفوس العرب وان يتناول المعول لهدمها بنفسه كما قدّر له ان يهدم أصنامهم بيده لأوّل مرة عند فتح مكة وكما هو شأنه في جميع مانهى عنه من عاداتهم . وهذا الذي كان يخفيه فى نفسه كان الله مبديه بأمره الذي أوحاه اليه فى كتابه وبتزويجه زوجة من كانوا يدعونه ابناً له كما تقدم بيانه . ولم يكن يمنعه عن ابدآء ما أبدى الله الا حياء الكريم ، وتُؤَدَةُ الحليم ، مع العلم بأنه سيفعل لامحالة لكن مع معاونة الزمان

أذكر لطيفة لبعض الاذكياء جرت بمحضر مني . وذلك انا كنا نزور أحد الاساتذة الاميركانيين فى مدينة بيروت فجاء فى الحديث ذكر قوله تعالى « الذي أحسن كل شيء خلقه » فقال الاستاذ الاميركي : حتى زينب زوجة زيد

ابن حارثة . يشير بقوله هذا الى تلك الحادثة ويعرض بعشقه صلى الله عليه وسلم لزينب (على مازعموا) فقال له صاحبي: سبحان الله انكم تشتغلون بعلوم السموات والارض ولا تستعملون عقولكم فى أقرب الاشياء اليكم مع انكم فى المشهور عنكم من أشد الناس ولعاً بالبحث فى الاديان. ان الله أمر نبيه ان يتزوج زوجة من دعاه ابناً له ليبين للناس بالفعل انه ليس كل من لقب بالابن يكون على الحقيقة ابناً فان كان المسيح قد دعي في لسان الانجيل بالابن فليس هذا على الحقيقة وانما الابن الحقيقي من وُلد من أَبيه ولادة صحيحة « ان فى ذلك لذكرى للعالمين » والله أعلم.

﴿ المقالة الرابعة في مسألة زيد وزينب ﴾

﴿ ايضاح وخلاصة — رد شبهة مسيحى فاضل ﴾

لقد كان لما كتبه مولانا مفتى الديار المصرية فى هذه المسألة ونشرناه فى الجزء ٢٧ اجمل وقع . وأجل نفع . فتقشعت به سحب الشبهات . وانحلت عقد المشكلات . وسكنت حركة الشكوك التى كان يثور عجاجها . وتتلاطم امواجها . ويهمر

ثجّاجها . وتتدفّق أثباجها . وشفيت امراض أعيا الاطباء علاجها . وقطعت من شخوص المطاعن حلاقيمها واوداجها وهكذا يقذف بالحق على الباطل . فيدمغه فاذا هو زاهق وزائل .

الا ان كلام الاستاذ فى علوّ اسلوبه . وبديع تأليفه وتركيبه . ورسوخ عرقه فى الفصاحة . وبعد غوره فى البلاغة لم تتجلّ جميع مقاصده لجميع الاذهان . ولم تنجل عرائس حسنه لكل من له عينان . ومن الناس من اعشاه نوره . وراعت فؤاده حوره . فاشتبه عليه سلطان البرهان . بسحر البيان . فتوهم أنه مسحور الوجدان . لا مقتنع العقل والجنان . وتخيل انه مختلب بعبارة القلم واللسان . لا مجتذب ببراعة الحجة الى قرارة الاقرار والاذعان . اعني بهذا وما قبله من استزادنا في المسئلة بياناً . ليزداد الذين آمنوا إيماناً . ومن قال من فضلاء المسيحيين . ان الشبهة لم تنكشف عن غير المسلمين . وانما غشيها من فصاحة الاستاذ وبلاغته . وبراعته فى عبارته . نور علا ظلمتها . وشغل النظر عن تشويه صورتها . وان من يضع على عينيه منظاراً ملوّن الزجاج . ينكسر به شعاع البلاغة الوهاج يمكنه ان يبصر الطريقة . ويدرك الحقيقة . قال هذا وانشأ

ينتقد كلمات الاستاذ رأي انها إقناعية. وليست حقيقه واقعيه.
منها قول الاستاذ « ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم لكان اقوى سلطانه عليه جمال البكر فى رُوائه ونضرة جدَّته » الخ وذهب هذا المعترض فى نقض هذه المسئلة الى ان من البنات من تكون دميمة فى طور البكارة حتى اذا ماتزوجت اكتست حلل الحسن والبهاء. والجمال والرواء. فيحتمل أن السيدة زينب كانت من هذا القبيل. وان كان فى الوجود أقل القليل

ومنها قول الاستاذ « لم يعرف في مألوف البشران تعظم شهوة القريب وولعه بالقريب خصوصاً اذا كان عشيره منذ صغره » الخ قال المعترض انه يحفظ وقائع متعددة تعلق فيها الاقرباء بعضهم ببعض حتى كان من ذلك ما لا خير فيه. وكذلك شأن من اشرب قلبه إنكار شيء او إثباته يتعلق بالشذوذ ويتشبث بالاستثناء ويترك القواعد العامة لايحفل بها. وعهدي باذكياء المسيحيين انهم يرون اقوى اعتراض لهم على المسلمين في احتجاب النساء ان الحجاب والمنع من اسباب ازدياد الرغبة وقوة الداعية الى التطلع والرؤية. وان في الاختلاط أنساً ينتهي

بالملل والزهادة كما هو المطرد في العادة . لاسيما بالنسبة للاقربين

ورأيت من المسلمين من يستدل على صحة هذا القول بكون النفوس الى النساء المسلمات المتحجبات . أميل منها الى النساء الاوروبيات . واكثر تشوقا . وأشدّ تطلعاً . مع ان الاوربيات فى الجملة اجمل . وزينتهن اكمل . وما ذلك الا لانهن معروضات على الانظار . مألوفات للابصار . وكل معروض مهان . والمألوف لايعظم به الافتتان

منعت شيئاً فاكثرت الولوع به

احب شيء الى الانسان مامنعا

ولنلو عنان النظر عن هذا وذاك وننظر الى تلك الواقعة من غير ملاحظة ان من مقتضى الطباع السليمة . ومن شأن النفوس الكبيرة . — التي لاينكر مناظرنا المسيحيّ الفاضل ان نفس محمد (صلى الله عليه وسلم) منها وان انكر نبوته — ان لايقع منها الشذوذ بشدة العشق للقريب المألوف بحيث ينتهي الى ان صاحب النفس الكبيرة المتصدي لتأسيس دين وشريعة يزاحم عبداً من عبيده على امرأة زوَّجه بها لعشقه لها بعد زهده فيها وان يدخل ذلك في الشريعة التي يؤسسها . ثم

يظهر للملأ أن الله تعالى أنَّبه على ذلك بمثل قوله « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » . ولو كانت الواقعة كما يتوهم القوم وكان محمد هو واضع القرآن ومؤلفه لما جعل نفسه ملوماً وأظهر انه انما أبطل التبني في دينه لحظ نفسه وارضاء شهوته وجعل هذه الفضيحة مسجلة عليه في الكتاب الذى أمر بكتابته دون سائر كلامه وبشر بانه ينتشر فى مشارق الارض ومغاربها وانه يبقى مقروءاً متبعاً مادام الناس فى هذا العالم

قال مناظرنا ان الاستاذ كتب للمسلمين وكلامه مبني على التسليم بنبوة محمد وهو لاينهض حجة على النصارى الذين ينظرون فى المسئلة نظراً تاريخياً وقد ألمعنا الى هذا من قبل ولذلك بنينا الكلام على ان محمداً رجل مصلح باسم النبوة تنزلا جدلياً وان كان الذين يعتقد فيهم صاحبنا وقومه النبوّة ليس لهم من الأثر الاصلاحي الدينيّ عشر معشاره . أما كونه مصلحاً فلا ينكره منهم عاقل وقد قال لي الدكتور فانديك الشهير ان مبدأ الاصلاح الذى وضعه محمد هو أعظم المبادئ وأقواها وهو الوحدة فى الاعتقاد والاجتماع .. ورأيت بعض

من كتب فى تاريخ العرب من الافرنج جعل تاريخهم قسمين قسماً سماه (ما قبل الاصلاح المحمدي) وقسما سماه (مابعد الاصلاح المحمدي) وكل هذا من البديهيات فلنرجع الى أصل المسئلة

المخالف موافق لنا فى شيء واحد وهو ان الآيات الواردة في المسئلة متضمنة لابطال التبنّي الذى كانت العرب تدين به ولكنه يدّعي ان إبطال هذه البدعة لم يكن مقصوداً اولاً وبالذات وانما كان حيلة للتوسل الى تزوج محمد بزينب بعد ان تزوجها عتيقه ومتبنّاه زيد بن حارثة ورآها عنده قد زادت حسناً عما كان يعهد . ولو كان الغرض ابطال التبني وما يترتب عليه من الاحكام الجائرة والمفاسد الضائرة لعهد بتنفيذ ذلك الى غيره من اتباعه . ونجيب عن هذا من وجوه تضمنها كلام الاستاذ اواستلزمها

(الأول) من المشهود المعهود في البشر ان العادات والتقاليد متى صارت عامة يصعب على النفوس ان تتركها لمجرد أمر مصلح لاسيما في اول زمن الدعوة الى الاصلاح ولا يقدم على الابتداء بخرق العادة وتمزيق حجب التقليد الا أصحاب

العزائم الكبيرة وهم المصلحون الذين يستهدفون لسهام الانتقاد العام ويتحملون في سبيل الاصلاح كل إهانة وسخرية من الدهماء وجماهير الناس ليكونوا قدوة لغيرهم فى ذلك . وقد اتفق علماء التربيـة على ان ملاكها وقوامها الاقتداء والتأسي لا القول والارشاد اللفظي . وكذلك كان شأن النبي (صلى الله عليه وسلم) فى كل ما أبطله من اعتقاداتهم وتقاليدهم وعاداتهم يبدأ بنفسه ثم بأقرب الناس اليه . وقد مثلنا للأول فى هامش مقالة الاستاذ بمسئلة الحلق في الحديبية وكيف خالف النبيَّ جميع الصحابة حتى حلق بالفعل فاقتدوا به ومثَّل الاستاذ بابطال الربا . وليفرض المخالف انه دخل فى دين جديد مقتنعاً به ومعتقداً صحته وان القائم بالدعوة الى هذا الدين امره بان يتزوج بأخته لأن دينه يحكم بذلك أليس يصعب عليـه الامتثال أشد الصعوبة بحيث يرجح مخالفته . هذا واننا نرى اهل كل دين قد خالفوا بعض احكام دينهم اتباعا للعادات التي صارت عامـة ويصعب عليهم الرجوع الى الأصل . واذا كان الامر بهذه الدرجة من الصعوبة فالعاقل لا يقـدم على تكليف الناس به بمجرد القول خوفا من اضطرارهم الى مخالفته التي تفسد العمل وتؤدي الى

خلاف المقصود

(الثانى) لو انه (صلى الله عليه وسلم) عمد الى تنفيذ هذا الحكم بغيره لاحتاج الى الأمر بعدة أمور بعضها أشد من بعض ومنها ماهو خلاف تعاليمه الدينية . (أحدها) ان يأمر بعض من تبنِّيَ بان يتزوج وربما كان يقل فى المسلمين عدد الادعياء الذين عندهم الاستطاعة الشرعية للتزوج مع ان الذين تبنوهم مسلمون وفى سن قابل للزواج وربما يقع الامر لغير المستطيع من حيث لا يعلم الآمر لانه لم يكن عارفا بجميع شؤون الناس الخصوصية والمنزلية . على أن من شأن من يحب ان يطاع فى كل أمر أن لا يتعرض للامور الخصوصية المباحة الا بالنسبة لاقرب الناس اليه بل هذا شأن جميع العقلاء وهـذا الوجه أهون مما بعده (ثانيها) أن يأمره بعد الزواج بالطلاق والامرُ بالطلاق منكر وانما أباحه الشرع للضرورة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم فى التنفير منه « ابغض الحلال الى الله الطلاق » رواه أبو داود من حديث ابن عمر رضى الله عنهما . ثم ان هذا المتزوج لا يبعد أن يحصل بينه وبين من يتزوج بها من الالفة والمحبة ما يصعب معه الفراق . ويتعاصى به الخضوع لامر الطلاق

(ثالثها) ان يأمر من كان تبنَّى هذا المطلّق بأن يتزوج بالمطلَّقة ويُتوقع فى هذا الامر امور منها أن هذا المتبنّي قد تنفر نفسه منها لذاتها بان يستبشع صورتها أويكون عارفا من طباعها مالا يمكنه معه معاشرتها وقد يكون متزوجا بغيرها ولا يستطيع الجمع بين امرأتين ثم ان هنا ملاحظة أهم من كل ماذكر وهو ان تعدد الزوجات مشروط فى القرآن بعدم الخوف من ترك العدل بين الزوجات ولاشك ان الذى يريد التزوج بامرأة متبنّاه لمجرد الامتثال لأمر النبي صلى الله عليه وسلم يخاف من عدم العدل بين الزوجة الجديدة التى يأخذها كارها وبين الاولى التى كان آلفاً لها ومستأنسا بمعاشرتها وعند ذلك لا يصح النكاح . (رابعها) انه قد يرضى هو ولا ترضى هى لانها فتية وهو شيخ مثلا ولا يخفى شيء من هذه الامور على ذلك الرجل العظيم الذى جاء بتعاليم واعمال قلبت هيئة الارض وغيرت نظام الامم سواء كان نبياً (كما هو الواقع) أولم يكن (كما هو رأي المخالف)

(الوجه الثالث) ان هذا المصلح الحكيم اختار صورة لابطال تلك العادة الدينية الجاهلية خالية من كل المحظورات

المشروحة فى الوجه الثانى وذلك بان يزوج متبنّاه بامرأة يقضي العقل بانه يختار هو وإياها الفراق عن رضى لعدم الكفاءة ثم يتزوجها هو ولاشك انها ترضاه لما هو معلوم من القرابة والجمال والكمال وكذلك كان

(الوجه الرابع) ان الذى يدل مع ماتقدم على ان الامر مقصود للنبي (صلى الله عليه وسلم) منذ خطب زينب لزيد (رضى الله عنهما) إلحاحه فيه وعنايته الكبرى به . وقد خطب هو نساء ولم يتزوج بهن وتزوج بعدة نساء ولم يذكر فى القرآن شيء من ذلك لان القرآن كما قلنا لم يذكر فيه الا أهم المهمات في الدين حتى انه لم يذكر فيه هيئة الصلاة ولا عدد ركعاتها ولا تحديد أوقاتها فعدم مبالاته بإبائها وتمنعها وإباء أخيها الا يمكن أن يكون لمصلحتها ولا لمصلحة زيد لان العقل قاض بانه لا ينعم له معها بال مع هذا النفور والاباء وما هو معلوم من أَنَفَةَ اشراف العرب كبني هاشم وبني المطلب وهي من صميمهم وكانت لا ترى لها كفوءاً الا النبي (صلى الله عليه وسلم) فلم يبق لهذا الالحاح والتحتيم عليها بالرضى به الا قصد إبطال تلك البدعة الذميمة بأقرب الوجوه وأبعدها عن الضرر والضّرار

(الوجه الخامس) ان السورة التى ذكرت فيها القصة جاء فى فاتحتها « وما جعلَ ادعياءَكم ابناءَكم ذلكم قولكم بافواهكم والله يقولُ الحقَّ وهو يهدي السبيلَ . أُدعوهم لآبائهم هو أَقسطُ عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم » الآية . وجاء فيها بعد هذا وقبل ذكر القصة « لقد كان لكم فى رسول الله أُسوةٌ حسنةٌ » فقد أبطل التبنى بالقول ولم يعمل بمقتضاه أحد قبله (صلى الله عليه وسلم) فهذا التمهيد . مع ذلك التشديد . برهان كاف على ذلك القصد الحميد . ومناف لزعم الزاعمين ان قصد النبي صلى الله عليه وسلم التزوج بزينب كان بعد مارآها فى بيت زيد رضى الله عنه . وفى هذا كفاية لغير المعاند والله أعلم .

نشرنا هذه المقالة فى الجزء التاسع والعشرين من مجلد مجلة « المنار » الرابع بعد مناظرة فى مقالة الاستاذ بيني وبين احد فضلاء المسيحيين كما علم من صدر المقالة

فهرست

ما اشتملت عليه هذه المجموعة

صحيفة

صحيفة

(تنبيه) لدى المراجعة بعد الطبع تبين لنا ثلاث غلطات فاقتضى بيانها لاصلاحها وهي

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
١	٧	حسنة يقولوا	حسنة يقولوا هذه
١٩	١٣	المدارك	الفهم
٢٢	٩	تسبق	تبسق

LIBRARY
SEP
27
TORONTO

BP
128
.16
M8
1902